رجال حول الرسول ﷺ

أحمد ياسر فاروق

المركز العربي الحديث
١٠٢ شارع الإمام علي، ميدان الإسماعيلية، مصر الجديدة،
القاهرة ت: ٢٧٠٦٠٤٨ ٢ فاكس ٢٢٧٤٦١٣٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٤٣٤٦
الترقيم الدولي:977-5714-44-3

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الملك القدوس السلام ، المتفضّل على عباده بالرزق والإنعام ، والصلاة على نبينا محمد أفضل صلاة وأتم سلام . الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام ، وعلى الآل والصحب الكرام ، السادة النجباء العدول الأعلام . والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى الدوام . . وبعد . . فبين يديك أيها القارئ الكريم كتاباً يضم بعضاً من صحابة الرسول ﷺ . ولم نتوسع في ذكر أخبارهم وحياتهم ، بل اقتصرنا على لمحات وإضاءات من حياتهم المملوءة جهاداً وكفاحاً ونشراً للعلم والنور في ربوع الدنيا ، لذلك على قول الرسول ﷺ في حقهم : « خير أمتي قرني » . . ولم نشأ أن نتطرق إلى الحديث عن الصحابة من الخلفاء الراشدين والعشرة المبشرين بالجنة لأن الكتب استفاضت في ذكر أخبارهم ، والحديث عنهم لا يكون في لمحة خاطفة ، وسرد سريع ، وإنما دراسة وافية ، وغوص في الأعماق ، وتوغل في بستان حياتهم ، لاستلهام الدروس والعبر . ونحن نذكر فقط بعض الصحابة ، ونضع القارئ الكريم في بداية الطريق ليواصله ، ومن يريد الاستزادة فعليه بالعودة إلى المراجع وأمهات الكتب .

* من هو الصحابي ؟

لفظ الصحابي يطلق على من لقي النبي ﷺ يقظة وأمن به بعد بعثته وحال حياته ومات على الإسلام . أما من لقيه ولم يؤمن به فلا يطلق عليه صحابي ، وكذلك من آمن به ولم يره حال حياته فلا يطلق عليه صحابي ، وأيضاً من أمن به ولقيه ثم ارتد بعد ذلك ـ والعياذ بالله ـ فلا يطلق عليه صحابي .

* فضل الصحابة

الصحابة هم أفضل الناس بعد النبي ﷺ ، كما يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب

أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ ، رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني .

وهم كلهم عدول ، وأهل فضل حتى من حارب الإسلام أولاً ثم أسلم بعد ذلك كأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه ، عكرمة بن عمرو بن هشام رضي الله عنه ، فعدالتهم مذهب أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ونصرته وتبليغ شرعه وإعلاء كلمته .

وعن فضلهم تحدثت الأيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة .

فمن الأيات قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : 29]

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : 100] .

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ « **النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**» رواه مسلم .

وعن عمران بن حُصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** » متفق عليه واللفظ للبخاري.

• حكم سب الصحابة

الهجوم على الصحابة يعني الهجوم على الإسلام ورسوله والدين وأحكامه لأنهم نقلة الدين وحملة مشاعل الهداية ، والطعن فيهم يعني أن الرسول ﷺ لم

يحسن اختيار صحابته وبالتالي فهو طعن في الرسول ﷺ أما من يسب الصحابة ، ويطعن فيهم ، ويشكك في عدالتهم ، فقد أتى كبيرة من الكبائر ، وفاحشة من الفواحش . وقد أجمع علماء السنة على حرمه سب الصحابة ، والحط من قدرهم . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه** » متفق عليه واللفظ للبخاري .

وسب الصحابة دليل على الفسق والإبتداع في الدين ، وبهذا قال جمهور العلماء ، وقد يؤدي بالساب إلى الزندقة .

وهذا الكتاب محاولة بسيطة لإبراز دور الصحابة ، ودفاعهم عن الإسلام وصبرهم عليه حتى أظهره الله تعالى ووصل إلينا .

وأسلوب الكتاب جعلناه يتناسب مع الناشئين والمبتدئين ومع الفئة العمرية من سن **12** سنة إلى **18** سنة .

وقد نوعنا في الشخصيات بقدر الإمكان ، فهناك شخصيات من المهاجرين وشخصيات من الأنصار ، وهناك من آمن بمجرد ظهور دعوة الإسلام وهناك من أسلم بعد فترة ، كما أن هناك من حاربه وكان شديد العداء له ، ثم آمن به وصدقه ، وصار من أتباعه المخلصين ، وهناك من أسلم كبيراً ، وهناك من أسلم صغيراً . وهناك من رباه النبي ﷺ في بيته ، وهناك من مات شهيداً ، وهناك من مات على فراشه . وهناك من كان قائداً للمعارك والسرايا وهناك من كان جندياً فيها . بل إن هناك من مات قبل الهجرة النبوية كالبراء بن معرور رضي الله عنه .

. . . واللة أسأل أن يجعل ذلك في ميزان حسناتنا ، وأن ينفع به كاتبه وقارئه فهو الهادي إلى سواء السبيل .

* * *

(1) بـــلال بن ربـــاح رضي الله عنه

جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة . قال : ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

فمن هو بلال ؟ وكيف أسلم ونال هذا الفضل . وهذه البشرى العظيمة بالجنة ؟ وما هي قصة حياته وكفاحه وجهاده ؟

* * *

إنه بلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول ﷺ أحد السابقين إلى الإسلام ، بل هو سابق الحبشة ، وذلك أنه ما أن سمع ببعثه النبي ﷺ حتى ذهب إليه ، وأسلم بين يديه ، ونطق بكلمة التوحيد « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » : وما أن علم سيده أميه بن خلف حتى أمره بالرجوع إلى عبادة اللات والعزى وغيرهما من الأصنام . ولكن بلال رفض عبادة غير الله تعالى . إنه يعلم أن هذه الأصنام حجارة عمياء صماء ، لا تنفع ولا تضر . فبدأ سيده في تعذيبه أشد أنواع العذاب ، ولكن هيهات[1] . أيعود بلال للكفر بعد أن نجاه الله منه ؟! أيعود بلال للشرك بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ؟! أيعود بلال لظلمات الجهل بعد أن خرج إلى نور الإسلام ؟! . ويشتد العذاب على بلال حتى وصل الأمر بأميه بن خلف أن يخرج به إلى الصحراء في اليوم الشديد الحرارة وقد التهبت رمالها ويجرد بلال من ثيابه ، ويضع على صدره الحجر الثقيل ، ويمنع عنه الماء حتى يكفر بالله ويعود إلى دين اللات والعُزَّي فلا يزيد على قوله : ربي الله ، أحد ، أحد ، ولو أعلم كلمة غيرها لقلتها . إنه ثابت على الحق لا يحيد عنه ، وكذلك كل من عرف الحق يتمسك به ، ويصر عليه .

أحد ، أحد هكذا كان بلال يرددها معلناً إيمانه بالله وتمسكه بالحق ، وتهز هذه

---

(1) هيهات : اسم فعل بمعنى البُعْد .

الكلمة القلوب الكافرة ، ويهزها أكثر صبر هذا العبد ، كيف يحتمل مثل هذا العذاب الشديد القسوة .

وكان أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ ممن يعذب بلالاً فكان يبطحه على وجهه في الشمس المحرقة ، ويضع الرحى الكبيرة على صدره تارة ، وعلى ظهره تارة أخرى ، ويقول له : أكفر برب محمد أخفف عنك ما بك من عذاب . فلا يجيب بلال إلا بقوله الخالد : أحدٌ . أحد .

ويقال له أيضاً : اذكر اللات والعزى بخير نرفع عنك العذاب . فيرد عليهم : إن لساني لا يحسنه .

وهكذا كان بلال يسخر من عقول المشركين ، ويرى أن العذاب إنما يقع على جسده ، أما قلبه فهو ملك لله عز وجل .

ويشتد العذاب على بلال ، ويتضاعف أكثر وأكثر حتى أن أمية بن خلف كان إذا مل من تعذيبه طوّق عنقه بحبل [1] من ليف ، ودفعه إلى غلمان وسفهاء مكة يطوفون به أنحائها وشعْبها [2] وجبالها ، ويزيدونه مع هذا قذفه بالحجارة ، فتنزف الدماء من أنحاء جسَده ، ويؤثر الحبل في عنقه ، فلا يزيده هذا إلا إصراراً على إصرار وثباتاً على الحق ثباتاً بعد ثبات ، حتى أتى فرج الله تعالى لبلال رضي الله عنه .

***

جاء فرج الله تعالي لبلال متمثلاً في قول الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : لو كان عندنا شيء لأشترينا بلالاً . فيعلم الصديق هذه الإشارة فيذهب للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ويقول له : اشتر لي بلالاً . فينطلق العباس إلى سيد بلال ويقول له : هل لك أن تبيعني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره ؟ فإني أراه قد ضعف وهزل من شدة العذاب والجوع والعطش . فيتعجب سيده وهو يقول : وماذا تصنع به ؟ إنه عبد خبيث ، وإنه، وإنه . . . وأخذ يعدد مساوءه من وجهه نظره .

---

(1) طوّق عنقه بحبل : : أي جعل الحبل حول عنقه كالطوق .

(2) الشِّعْب : الطريق أو الممر بين الجبلين .

ولكن العباس تمسك بشرائه ، فيبيعه سيده، ويعتقه الصديق رضي الله عنه ، ويصبح بلال حراً لوجه الله تعالى .

هذا ما كان من أمر بلال بن رباح في مكة المكرمة .

***

وتدور عجلة الأيام . ويهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، وفي السنة الأولى للهجرة يشرع الآذان فيأمر الرسول ﷺ بلالاً رضي الله عنه بالآذان ، لعذوبه صوته ، ونقاء حسه . ويصبح بلال أول مؤذن في الإسلام .

وتحكي امرأة أنصارية من بني النجار ، تقول : كان بيتي أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة ، فيأتي بسحر -وقت السحر- ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رأه تمطى[1]، ثم قال : اللهم إني أحمدك واستعينك على قريش أن يقيموا على دينك . وتقول المرأة : والله ماكان يتركها ليلة واحدة .

وهكذا كان بلال يحب الخير للجميع ، حتى لمن عذبوه ، وأذوه ، لأن القلب إذا امتلأ بالإيمان لا يصبح فيه مكان للغل والكراهية والضغينة .

وكان بلال إذا فرغ من الآذان وقف على باب بيت الرسول ﷺ ، وقال : حي على الصلاة ، حي على الفلاح . الصلاة يا رسول الله . ويقيم الصلاة بمجرد خروج الرسول ﷺ .

وتمضي الأيام ، ويشرع الجهاد دفاعاً عن الدين ، ويشارك بلال رسول الله ﷺ جميع الغزوات والمعارك . وفي غزوة بدر الكبرى يكون الثأر .

***

تدور المعركة ويحمي الوطيس بين جيش الإيمان ، وجيش الكفر . جيش الإيمان بقيادة الرسول ﷺ وجيش الكفر بقيادة أبو جهل عمروبن هشام ، وينتصر المسلمون، ويحصدون رءوس الكفر . ووسط المعمعة[2] يبصر بلال أمية بن

---

(1) تمطى : مد ظهره .

(2) المعمعة : الحرب سميت بذلك لاختلاط أصواب المقاتلين واشتعال نارها .

خلف، ذلك المشرك الجبار الذي طالما عذبه بمكة ، وأذاقه العذاب ألوانا وأصنافاً . ولكن أمية يهرب من الموت القادم مع سيف بلال إلى صديقه القديم بمكة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فيحتمي به ويلقي بنفسه أسيراً له ، طلباً للنجاة ، وخوفاً من ثأر قريب الأخذ ، يجري نحوهما بلال شاهراً سيفه ، ورائحة الموت تفوح منه ، ويصيح قائلاً : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا . فيقول له عبد الرحمن بن عوف : أي بلال : أسيري . فيواصل بلال : لا نجوت إن نجا . فيقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أتسمع يابن السوداء . ولكن أنّى لبلال أن يسمع وهو الآن أمام عدو من أعداء الله تعالى حارب دين الله وعذب أولياءه والحرب لا زالت دائرة .

إنه الآن يمر في ذهنه شريط ذكرياته الأليمة بمكة المكرمة ، وقد هيأ الله له فرصة الثأر له ولإخوانه الذين استضعفوا .

وينظر بلال ، ويري نفسه وحيداً لا يستطيع أن يقتل أميه بن خلف ، ويأخذ بثأره فيصيح بأعلى صوته وسط المعركة : يا أنصار الله . رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا » فتأتى كوكبة من فرسان المسلمين ، وتحيط بأمية بن خلف، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي لا يستطيع حمايته ، ودفع الضر عنه ، فيقول له : انج بنفسك . فو الله لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً .

وتنهال السيوف المؤمنة على رأس ـ بل رؤوس الكفر المجرمة ، ويثأر بلال رضي الله عنه لنفسه كما ثأر أخوانه معه لأنفسهم ويشف الله صدورهم ويذهب غيظ قلوبهم وتنتهي المعركة بانتصار جيش الإسلام الذين كان شعاره في المعركة « أحد . أحد » تلك الصيحة التي كان يرددها بلال رضي الله عنه أثناء تعذيبه بمكة المكرمة .

***

وتدور السنوات ، وتتعدد معارك الإسلام مع الشرك والطغيان ، بدءاً من بدر ، وانتهاء بإرسال جيش أسامة ، ومروراً بأحد والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة المكرمة وحنين والطائف وتبوك ، وغيرها ، وفي كل هذه المشاهد كان بلال رضي الله عنه الفارس المجاهد مع رسول الله ﷺ ، بل إنه في غزوة خيبر ، وبعد انتصار المسلمين، وأثناء عودتهم يسأل الرسول ﷺ : من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ فيتطوع

بلال للحراسة ، ويقول : أنا يا رسول الله أحفظه عليك . فنام رسول الله ﷺ ، ونام الناس من شدة التعب . وقام بلال يصلي . . صلى بلال رضي الله عنه ما شاء الله أن يصلي ، ثم استند إلى بعيره منتظراً ظهور الفجر ، فغلبته عيناه فنام ، ولم يوقظ المسلمين إلا حر الشمس . وكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً . فنادى بلال وسأله عما صنع . فهب بلال من نومه وهو يجيب : يا رسول الله ، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك . فقال رسول الله ﷺ . صدقت .

وكان بلال رضي الله عنه خازناً للمال الذي يأتى لرسول الله ﷺ ، يتولى توزيعه ، واعطاءه لمستحقيه كما يأمره رسول الله ﷺ . وحدث ذات يوم أن هاجم شبح الرق بلالاً ، وكاد أن يعود به عبداً رقيقاً لأحد المشركين . كما كان في مكة المكرمة سابقاً .

فهيا بنا نتعرف على هذه الحادثة .

***

كان رسول الله ﷺ إذا أتاه المسلم فرآه عائلاً [1] فقيراً ، لا يملك شيئاً يأمر بلالاً فيستدين ويشتري للرجل الملبس والطعام ، ويسدد الرسول ﷺ ذلك الدين بعد ذلك إن لم يكن في بيته مال . وذات يوم اعترض بلالاً رجل من المشركين فقال : يا بلال إن عندي سعة ، فلا تستقرض [2] من أحد إلا مني .

واقترض بلال من هذا الرجل على أ ن يسدد دينه بعد شهر ، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك . فلما كان ذات يوم ، وقبل انقضاء الشهر بأيام توضأ بلال ثم أتى ليؤذن بالصلاة فإذا بالمشرك في عصابة [3] من التجار يعترض طريقه ، ويقول له بوجه غليظ كريه : يا حبشي . أتدري كم بينك وبين الشهر ؟ فأجاب بلال : قريب . فقال المشرك : إنما بينك وبينه أربع ليال . فأخذك بالذي لي عليك . فإني لم أعطك الذي أعطيتك . ولم أقرضك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، ولا حباً فيكما ، وإنما أعطيتك لتصير لي عبداً فترعى لي الغنم كما كنت قبل ذلك . ثم تركه وانصرف .

---

(1) عائلاً : الرجل له عيال يعولهم .

(2) تستقرض : تستدين وتستلف .

(3) عصابة : جماعة من الناس .

ودارت رأس بلال رضي الله عنه، ودارت معها عجلة الزمان للوراء، مستعيدة ذكريات أليمة في مكة المكرمة وقت أن كان تحت يد أمية بن خلف يسومه [1] سوء العذاب، ويلهب ظهره بالرمال المحرقة، هو وغيره من مشركي قريش.

أيعود ذلك الماضي مرة أخرى، والمسلمون اليوم أعزة. لا. لابد أن الله تعالى له حكمة في ذلك فليصبر وليحتسب، فإن مع العسر يسرين، وبعد الهم فرجاً. ومع الضيق مخرجاً.

***

بعد أن طافت بذهن بلال هذه الأفكار، وأخذ بنفسه الذي يأخذ بأنفس الناس في مثل هذه المواقف، انطلق وأذن للصلاة. حتى إذا صلى العشاء وانصرف المسلمون من صلاتهم دخل على رسول الله ﷺ بعد استئذانه، وقال له: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إن المشرك الذي ذكرت لك أني أخذت منه ديناً قابلني اليوم، وقال لي: لم يبق إلا أربع ليال على انتهاء الشهر، بعدها سيأخذني رقيقا بالدين الذي له عليّ، ولا شك أنه فاعل، وفاضحي، وليس لدينا ـ كما تعلم ـ ما يقضي الدين، فأذن لي أن أتى بعض أحياء اخواننا المسلمين، فامكث عندهم حتى يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني. ثم خرج إلى منزله وجاء بنعله وسيفه ورمحه وحرابه وجعلها عند رأسه، ونام مستقبلاً بوجهه الأفق. مفكراً في همه، وأنى له أن ينام؟ بل كيف للنوم أن يزوره؟! فقد ظل طوال الليل كلما غفلت عيناه انتبه. وذلك حتى انشق عمود الصبح ولاح الفجر للظهور، وقبل أن ينطلق للنداء بصلاة الصبح سمع من يناديه: يا بلال، أجب رسول الله ﷺ. فانطلق بلال قاصداً حبيبه ﷺ فوجد أربع جمال محملة. فدخل على رسول الله ﷺ بعد استئذانه فابتدره [2] الرسول ﷺ قائلاً: ابشر فقد جاءك الله بقضاء دينك. ألم تمر على الركائب المناخات الأربع؟ فأجاب بلال بعد أن حمد الله تعالى: بلى يا رسول الله فقال ﷺ: فإن لك رقابهن وما عليهن. فاقض دينك، فخرج بلال، وتفقد

---

(1) يسومه: يذيقه.

(2) ابتدره: سبقه.

الركائب الأربع فإذا عليهم كسوة وطعام أهديت إلى النبي ﷺ ، فقام بعلف الجمال ، ثم ذهب لرفع الآذان معلنًا دخول وقت صلاة الصبح ، وبعد صلاتها نادى في الناس : من كان يطلب من رسول الله ﷺ دينا فليحضر . فما زال يقضي ويسدد الدين حتى أتى عليها .

وهكذا يكون رزق الله تعالى للمتقين : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2، 3] .

***

وتمضي الأيام ، ويواصل بلال رضي الله عنه حياته ملازما النبي ﷺ ، ومجاهداً معه . وفي العشرين من رمضان من العام الثامن للهجرة يدخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة فاتحاً ، ويدخل الكعبة الشريفة ليزيل ما بها من صور ، ومعه بلال بن رباح رضي الله عنه ثم يأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد على سطح الكعبة ليهتف بأول آذان في مكة المكرمة .

يصعد بلال ، وينظر إلى مكة ، بيوتها وطرقها تلك البيوت التي كان يسكنها من عذبوه وآذوه ، وتلك الطرق التي كان يُجر فيها مربوطاً بالحبال من عنقه ، وينظر مرة أخرى إلى صحرائها ، تلك الصحراء التي أحرقته رمالها المشتعلة . إنه الآن يرفع صوته قائلاً : الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله فتردد معه الجبال التي كانت تردد معه سابقاً أحد . أحد .

ويعيش بلال رضي الله عنه حياته مؤذناً لرسول الله ﷺ ، وخادماً ، وملازماً له إلى أن توفاه الله ﷺ .

***

كان يوم وفاة الرسول ﷺ يوم حزن على الجميع ، فيه فارق حبيب الله أرض الله إلى سمائه ، وفيه انقطع الوحي جبريل عليه السلام عن الأرض بكي الجميع أكثر مما بكوا على آبائهم وأمهاتهم وأبنائهم .

عندما حان وقت الصلاة قام بلال رضي الله عنه يؤذن لها والرسول ﷺ مسجَّي [1] باكفانه لم يدفن بعد ، وعندما شرع في الآذان بدء في البكاء والنحيب ، حتى وصل إلى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » احتبس صوته وأجهش [2] بالبكاء ، ومعه كل من يسمع .

ولم يستطع بلال أن يؤذن في غيبة رسول الله ﷺ فطلب من الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يعفيه من الآذان ، وأن يأذن له في الخروج إلى الشام ، فجاء إليه وقال له : يا خليفة رسول الله ﷺ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله » وقد أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت .

فقال أبوبكر : أنشدك الله يا بلال ، وحرمتي وحقي ، لقد كبرت واقترب أجلي ـ فأقم معي ولا تتركني . وما يزال يراجعه حتى أقام بلال رضي الله عنه معه يؤذن للصلاة ويسترجع ذكريات ماضي قريب .

وبعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاءه بلال وقال له مثلما قال للصديق رضي الله عنه ، فرد عليه عمر رضي الله عنه كما رد الصديق رضي الله عنه ولكن بلال أبي ، وبالغ في الإباء .

فقال له عمر رضي الله عنه : ما يمنعك أن تؤذن وقد أذنت لرسول الله ﷺ ولصاحبه من بعده ؟ فقال : إني أذنت لرسول الله ﷺ حتى قبض ، ثم أذنت لابي بكر الصديق حتى قبض لأنه كان ولي نعمتي . وحاول عمر رضي الله عنه أن يرجعه عن عزمه فلم يستطع . .

وخرج بلال إلى الشام مجاهداً ومرابطاً [3] في سبيل الله طلباً للشهادة . .

وأراد بلال رضي الله عنه الزواج فذهب مع أخ له في الله يقال له أبو رويحة إلى قوم ليخطبا منهم فقال بلال رضي الله عنه : أتيناكم خاطبين ، وقد كنا كافرين فهدانا الله ، وكنا

---

(1) مسجّي : مغطي .

(2) أجهش بالبكاء : هم بالبكاء .

(3) مرابطاً : ملازماً لحدود بلاد الإسلام يمنع عنها الأعداء .

مملوكين فاعتقنا الله ، وكنا فقيرين فاغنانا الله . فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله . . فزوجوهما .

واستقر بلال رضي الله عنه في الشام إلى أن فتح المسلمون بيت المقدس ، وجاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتسلم مفاتيحها .

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس وتسلم مفاتيحها ، وطلب المسلمون هناك منه أن يرجو بلالاً ليؤذن لهم ولو صلاة واحدة .

فدعاه وقت حضور الصلاة ، ورجاه أن يؤذن لها ، فاستجاب بلال ، وصعد على مكان عال ، وأرسل صوته معلنًا الله أكبر ، الله أكبر داعيًا الناس إلى الصلاة وإلى الفلاح . ومع إرسال صوته أرسلت عيناه دموعهما على خديه ، حتى وصل إلى قوله أشهد أن محمداً رسول الله ، فبكى وأبكى من حضر وسمع من الصحابة الذين كانوا قد سمعوا بلالاً يؤذن لرسول الله ﷺ ، وكان أشدهم بكاءً أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولم يؤذن بلال رضي الله عنه بعد ذلك في بلاد الشام مرة أخرى ، وتمر الأيام ويرى بلال رضي الله عنه النبي ﷺ في منامه وهو يقول له : ما هذه الجفوة يا بلال ؟! أما آن لك أن تزورنا .

فانتبه بلال من نومه حزيناً مشتاقاً إلى زيارة النبي ﷺ ، فركب إلى المدينة المنورة وشد رحاله [1] إلى المسجد النبوي حتى وصل إليه ، وهناك أقبل على قبر النبي ﷺ وجعل يبكي حتى اخضلت لحيته وابتلت أرض المسجد ، فدخل سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين ابنا على بن أبي طالب رضي الله عنهم . فرأى بلال فيهما صورة رسول الله ﷺ فجعل يقبلهما ويضمهما إلى صدره ويبكي ويبكيان معه ، حتى قالا له : يا بلال ، نشتهي أن تؤذن في السحر ، فلم يستطع بلال أن يرفض هذا الطلب .

***

(1) شد رحاله : تهيأ للسفر .

وجاء وقت السحر ، وصعد بلال أعلى المسجد ، واستجمع قواه وذكرياته السابقة مع رسول الله ﷺ ، ورفع صوته بالآذان قائلاً : الله أكبر ، الله أكبر فاهتزت المدينة وارتجت . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله زادت رجتها . فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله اختلط صوته بالبكاء . وجرت دموعه من عينه حتى خرج الرجال جميعاً من بيوتهم ، وخرجت النساء من خدورهن [1] فما رؤي يوم أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم . لماذا ؟

إنه الصوت الرخيم ، يصدح [2] بنداء الحق الذي هيّج أذهان الناس ، وأعاد إليها ذكريات سابقة جميلة مع رسول الله ﷺ ، ومؤذنه رضي الله عنه .

وبعد هذه الليلة عاد بلال إلى الشام مرة أخرى ليواصل رباطه في سبيل الله حتى لحظة وفاته ، واستيفاء أجله .

كانت امرأته إلى جواره ، تعوله في مرضه ، حزينه عليه وعلى فراقه ، وكانت تصيح قائلة : واحزناه . وبلال يغيب عن الوعي ، يسترجع شريط حياته ، وما مر به من أحداث عظام ، ويشتاق للقاء أحبابه الذين سبقوه .

ويعود بلال رضي الله عنه لوعيه ويسمع صوت امرأته بجواره تكرر : واحزناه ، فيفتح عينيه في اللحظة الأخيرة قائلاً لها : لا تقولي واحزناه : بل قولي وافرحتاه . غداً نلقي الأحبه محمداً وصحبه .

ثم لفظ انفاسه الأخيرة ، وعلى شفتيه ابتسامه رضا وسعادة ومضى بلال رضي الله عنه إلى ربه راضياً مرضياً ، وله من العمر أكثر من ستين عاماً .

• من فضائل بلال بن رباح رضي الله عنه .

(1) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر . **يا بلال حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دفَ نعليك [3] بين يدي في الجنة ؟**

---

(1) خدورهن : الخدور جمع خدر وهو ستر يمد للمرأة في ناحية البيت .
(2) الصوت الرخيم : الصوت الحسن الرفيق السهل اللين .
(3) دف نعليك : صوت حركة نعليك .

قال : ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي » رواه البخاري ومسلم .

(2) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان عمر يقول : أبوبكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالاً .

(3) قال مجاهد ـ وهو أحد التابعين ـ أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة ، رسول الله ﷺ ، وأبوبكر ، وخباب ، وصهيب ، وعمار [1]، وبلال ، وسمية أم عمار فأما بلال فهانت عليه نفسه في سبيل الله عز وجل ، وهان على قومه ، فأخذوه فكتفوه ، ثم جعلوا في عنقه حبلاً من ليف فدفعوه إلى صبيانهم ، فجعلوا يلعبون به بين جبال مكة فإذا ملوا تركوه .

***

(1) خباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعمار بن ياسر شخصيات سيأتي ذكرها .

(2) سـلمان الفارسـي رضي الله عنه

قال عنه رسول الله ﷺ إنه من أهل البيت ، فكيف استحق هذا الفضل وهو الفارسي ؟!

وكيف حاز هذا الشرف ولم يكن بالقرشي ؟!

من يكون هذا الصحابي الجليل ؟

إنه سلمان الفارسي أو سلمان الخير ، سابق الفرس إلى الإسلام ، وأحد الذين تشتاق لهم الجنة .

ترك حياة البذخ والترف وهاجر في أرض الله يبحث عن الحقيقة ، والدين الحق ، وانتقل من حياة السيادة والزعامة إلى حياة الرق والعبودية أثناء ترحاله بحثاً عن أرض الرسالة ، ومهاجراً آخر الأنبياء ، المبعوث بدين إبراهيم الخليل حنيفاً مسلماً ، على أنبياء الله جميعاً الصلاة والسلام .

واصل القراءة لتعرف قصة حياة هذا الصحابي العجيبة .

* * *

تبدأ قصة سلمان رضي الله عنه في مدينة من مدن فارس تسمى « أصبَهَان » وفي قرية من قراها تسمي « جي » حيث كان الشاب المدلل ، والابن الأثير لدي أبيه ، القريب إلى قلبه ، وقد كانَ أبوه رئيس القرية ، وأكثر رجالها مالاً ، وأعلاها منزلة ، يمتلك القصور والبساتين والضِّياع [1] ، وكان يدين بالمجوسية حيث عبادة النار من دون الله ، وكذلك كان سلمان أول أمره .

وبلغ من حب أبيه له أنه كان يحبسه في البيت خوفاً عليه كما تحبس الفتيات وقد اجتهد سلمان في دينه القديم حتى أصبح القائم على أمر النار ، يزيد شعلتها ، ويقدم لها الحطب ، ولا يتركها تخبو [2] ساعة من ليل أو نهار .

---

(1) الضياع : جمع ضيعة وهي الأرض التي تدر دخلاً لصاحبها .
(2) تخبو : تسكن وتخمد .

وذات يوم انشغل الأب عن ضيعته ـ وكانت ضيعة عظيمة تدر عليه رزقاً وفيراً وخيراً كثيراً ـ انشغل عنها ببنيان يبنيه ، فقال لسلمان : يا بني ، إني قد شُغلت عن أمر الضيعة في بنيان هذا اليوم كما ترى ، فاذهب إليها وتولى أمرها اليوم عني فخرج سلمان رضي الله عنه ، وكان الله تعالى يريد له خروجاً آخر .

مر سلمان رضي الله عنه في طريقه بكنيسة للنصارى ، واستمع لأصواتهم داخلها ، واقترب منها فسمع صوت ترانيمهم وصلواتهم ، وكان لا يعرف عن النصرانية أي شيء ، واقترب أكثر حتى دخل عليهم ـ وتأملهم وأعجب بهم وبصلاتهم وهز قلبه هذا الدين ورغب فيه .

فقال في نفسه : هذا والله خير من ديننا ، وظل معهم حتى توارى [1] قرص الشمس في المغيب دون أن يذهب كما أمره أبوه . وقبل أن يفارقهم سألهم أين أصل هذا الدين ؟ فأجابوه : في بلاد الشام ، فقرر سلمان رضي الله عنه في نفسه شيء .

عاد سلمان رضي الله عنه إلى أبيه ، وكان قد بعث في طلبه ، فلما جاءه سأله : أي بني أولم أكن قد عهدت إليك بأمر الضيعة تعتني بشئونها ، وتتفقد أحوالها ؟ فقال : بلى ولكني عند خروجي مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فاعجبتني صلاتهم ، وما رأيت من دينهم ، فأقمت عندهم حتى غربت الشمس دون أن أفعل ما خرجت من أجله ، فقال أبوه وهو يحاوره : أي بني ، ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين أبائك خير منه . فرد سلمان : كلا والله إنه لخير من ديننا . وحاول أبوه من خلال المحاوره أن يغير رأيه فلم يفلح ، لأن الحق كان قد استقر في قلب سلمان رضي الله عنه ، وماكان له أن يخرج . فخاف أبوه أن ينتشر هذا الرأي من ابنه ، خاصة وأنه أحد رجال الدين ، بل هو خادم النار والقائم على أمرها ، فاكتفى بأن حبسه ووضع القيود في رجليه . وظل أياماً على هذه الحال حتى أتته فرصة الهرب والنجاة بدينه الجديد .

***

(1) توارى : اختفى .

دخل عليه خادمه بالطعام والشراب، فاستوثق منه سلمان رضي الله عنه وطلب منه ألا يبوح برسالة سيتولى ابلاغها إلى هؤلاء النصارى الذين كان عندهم . فأجابه الخادم إلى طلبه .

كانت رسالة سلمان رضي الله عنه لهم : أنه إذا قدم عليهم رجال من الشام فليخبروه . وما هي إلا أيام حتى قدمت قافلة من نصارى الشام فأرسلوا إليه أحدهم يخبرونه فقال للرسول : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرحيل والرجعة إلى بلادهم فليعلموه فأعلموه ، فخرج معهم متخفيا بعد أن تحايل على قيده وحطم أغلاله .

وصل الركب إلى الشام ، وهناك نزل سلمان رضي الله عنه ، وسأل عن أفضل رجل من أهل هذا الدين علماً ، فدلوه على الأسقف [1] راعي الكنيسة ، فجاءه سلمان رضي الله عنه وقال له : إني قد رغبت في هذا الدين فأحب أن أكون معك ، أخدمك في كنيستك وأتعلم منك ، وأصلي معك .

فأجابه إلى طلبه ، وقال له : ادخل فدخل سلمان رضي الله عنه وظل أياما يراقب الأسقف ، وعلم أنه رجل سوء فقد كان يأمر الناس بالصدقة ويحثهم عليها ، فإذا أعطوه لينفق على أصحاب الحاجة ، اكتنزه [2] لنفسه ، ومنعه الفقراء والمساكين وأصحاب الفاقة [3] ، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبًا وفضة فبغضه سلمان رضي الله عنه بغضاً شديداً لسوء صنيعه ، ثم ما لبث الرجل أن مات ، فاجتمع النصارى لدفنه ، فأخبرهم سلمان رضي الله عنه أن صاحبهم رجل سوء ، كان يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا أعطوه بخل بها وجعلها لنفسه ، فاستغربوا هذا القول ، وسألوه : كيف علمت ذلك ؟ فدلهم على كنزه فاستخرجوا منه القلال السبع المملوءة ذهباً وفضة .

فلما رأوا ذلك ثاروا وهاجوا ، وقالو : والله لا ندفنه أبداً . ثم صلبوه ورجموه بالحجارة . . وبعد أيام جاءوا برجل آخر فنصبوه مكانه .

***

---

(1) الأسقف : رجل دين عند النصارى فوق القسيس ودون المطران .

(2) اكتنزه لنفسه : جمعه وجعله لنفسه .

(3) الفاقة : الفقر والحاجة .

عاش سلمان رضي الله عنه مع الأسقف الجديد يخدمه ويلزمه ويتعلم منه، ووجد فيه رجل الدين الصالح ، الزاهد في الدنيا والراغب في الآخرة ، والمداوم على العبادة فأحبه كما لم يحب أحداً من قبل . فأقام معه زمناً طويلاً حتى حضرته الوفاة ، فقال له : إني كنت معك أتعلم منك، وآخذ عنك ، أحببتك حباً جماً [1]، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي ؟ وبما تأمرني ؟

فأجابه الرجل : أي بني ، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، فإن الناس قد هلكوا وبدلوا ، والصالحين قد ذهبوا، إلا رجلاً « بالموصل » وهي مدينة على نهر دجلة بالعراق ، وهو فلان ـ وذكر له اسم الرجل ـ فاذهب إليه واسأل عنه تجده على ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات الرجل ودُفن سافر سلمان رضي الله عنه إلى الموصل ، ولحق بصاحبه هناك بعدما سأل عنه وأخبره بقصته ، وقال له : إني قادم إليك من الشام ، وكنت عند فلان حتى أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره .

فقال له : أقم عندي .

فأقام سلمان رضي الله عنه فوجده خير رجل على أمر صاحبه، ثم لم يلبث الرجل أن حضره أمر الله ، فقال له سلمان رضي الله عنه : يا فلان ، قد علمت من أمري ما علمت ، وصاحبك بالشام أوصاني إليك ، وأمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟ وبما تأمرني فقال له : يا بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بمدينة بين الموصل والشام تسمى « نَصيبين » وهو فلان ـ وذكر له اسمه فالحق به وكن معه .

فلما مات الرجل ودفن ، سافر سلمان رضي الله عنه إلى « نصيبين » ولحق بصاحبه هناك وأخبره بقصته ، وما أمره به صاحب الموصل من اللحاق به . فقال له صاحب الموصل : أقم عندي . فأقام عنده زمناً فوجده خير رجل على أمر صاحبيه ، ثم ما لبث أن حضره أمر الله ، فقال له سلمان رضي الله عنه : يا فلان لقد علمت من أمري ما

---

(1) حبًا جماً : حباً كثيراً مفرطاً .

علمت ، وصاحبك بالشام أوصى بي إلى صاحبك بالموصل الذي أوصى بي إليك ، فإلى من توصي بي وبماذا تأمرني ؟ فقال له : يا بني ، والله ما أعلم رجلاً بقي على أمرنا إلا رجلاً في بلاد الروم بمدينة تسمى « عمورية » فامرك أن تأتيه ، وأوصيك أن تلحق به فإنه على مثل ما نحن عليه من الحق .

فلما أسلم الرجل روحه ، ودُفن سافر سلمان رضي الله عنه إلى « عمورية » طلبا للرجل فلما وجده أخبره بقصته ، وما أمره به صاحب « نصيبين » .

فقال له : أقم عندي فأقام عنده فوجده خير رجل على أمر أصحابه ، واكتسب وهو عنده بقرات وغنيمات ثم ما لبث أن نزل بصاحب « عمورية » ما نزل بأصحابه قبله من أم الله .

فقال له سلمان رضي الله عنه : يا فلان إني كنت ببلاد الشام عند فلان فأوصى بي إلى صاحبك « بالموصل » فكنت معه حتى أوصى بي إلى صاحبك « بنصيبين » فكنت معه حتى أوصى بي إليك ، فإلى من توصي بي ؟ وبما تأمرني ؟

فقال له : أي بني والله ما أعلم أن هناك رجلاً من الناس على ظهر الأرض على ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه حان زمان نبي يبعث من أرض العرب بدين إبراهيم عليه السلام ، ثم يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين [1] .

ولكن كيف أعرف هذا الرجل ؟ هكذا سأل سلمان رضي الله عنه . فأجابه الرجل : إن له علامات لا تخفى ، فسأل سلمان رضي الله عنه بتلهف : وما هي علاماته ؟

فأجابه الرجل : إنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

وذهب الرجل للقاء ربه ، ولا زالت كلماته الأخيره ترن في أذني سلمان « إنه يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة » .

❊ ❊ ❊

(1) الحَرَّة : كل أرض ذات حجارة سوداء ، والمقصود هنا المدينة المنورة .

بعد دفن الرجل مكث سلمان رضي الله عنه في «عمورية» ما شاء الله أن يمكث ، وخلال هذه المدة كان يتنسم أخبار الذاهبين إلى أرض العرب ، ويعيش ليله حالما بهذه الأرض ذات النخل ، وهذا النبي الذي لا يأكل الصدقة ، ويقبل الهدية حتى جاء نفر من العرب من قبيلة « كلب » للتجارة ، فقال لهم : هل لكم أن تحملوني معكم إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي وغنماتي هذه ؟ فقالوا : نعم نحملك . فأعطاهم بقراته وغنماته وحملوه حتى إذا بلغوا به مكاناً بين بلاد الشام والمدينة المنورة يسمي « وادي القرى » ظلموه وباعوه غدراً كأنه عبد لهم لرجل من اليهود الذي باعه لابن عم له من يهود بني قريظة الذين يسكنون المدينة المنورة جاءه ذات يوم زائراً . فلما وصل سلمان رضي الله عنه إلى المدينة ورأها عرفها بصفتها ، فهي ذات نخل وبين حرتين .

في هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ في مكة المكرمة يدعو إلى ربه ، ويبلغ رسالته ولم يسمع سلمان رضي الله عنه من ذلك بشيء لما فيه من الرق .

أقام سلمان رضي الله عنه مع سيده اليهودي حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، وعندها سمع بالنبي ﷺ ، وبدء في دخول الدين الحق ، ووصل للحقيقة التي كان يبحث عنها ، والغاية التي كان يرجوها .

***

كان سلمان رضي الله عنه ذات يوم يعمل في نخل سيده اليهودي الذي كان أسفله يراقبه إذْ أقبل ابن عم له ، وقال له : قاتل الله بني قبيلة (الأوس والخزرج) والله إنهم مجتمعون الآن بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبي . . . وما أن سمع سلمان رضي الله عنه بهذه الكلمات حتى ارتعش جسده ، واخذته الرعدة، وكاد أن يسقط على سيده، فنزل بسرعة خشية السقوط ، وبعد أن استعاد وعيه ، سأل ابن عم سيده : ماذا تقول : أعد عليّ الخبر ؟ فغضب سيده ، ولكمه لكمة شديدة ، ثم دفعه بكلتا يديه قائلاً له : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك فعاد رضي الله عنه إلى عمله وهو يقول لسيده : لا شيء إنما أردت أن استوضح عما سمعت .

وظل سلمان رضي الله عنه طوال اليوم يردد داخل نفسه : نبي آخر الزمان ، يُبعث من أرض العرب بدين إبراهيم الخليل يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرّتين ، علامته

أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة . واستعاد شريط حياته السابقة بدءاً من دخوله كنيسة النصارى بموطنه الأصلي بأصبهان ، ومروراً بالشام ثم الموصل ثم نصيبين ثم عمورية حتى وصل في نهاية المطاف إلى يثرب أو المدينة المنورة وما أن حل المساء حتى قرر سلمان رضي الله عنه أن يستوضح الأمر بنفسه ويستوثق من الرجل بعلاماته .

***

دخل المساء، فأخذ سلمان رضي الله عنه بعضاً من تمر كان يدخره ، فذهب إلى النبي ﷺ حيث ينزل ، فوجده مع بعض أصحابه فقال له : بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء جعلته للصدقة ، فرأيتكم أحق الناس به فخذوه ، ثم قربه إليهم .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا ، وأمسك هو فلم يأكل . فقال سلمان رضي الله عنه في نفسه : هذه والله واحدة ، إنه لا يأكل الصدقة .

وجاء في مساء اليوم التالي ببعض من التمر إلى رسول الله ﷺ فوجده مع بعض أصحابه ، فقال له : إني قد رأيتك بالأمس لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها ، ثم وضعها أمامهم .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا، وأكل معهم . فقال سلمان رضي الله عنه في نفسه : هاتان والله اثنتان ، لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية .

وبعد أيام جاء سلمان رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فوجده بمقبره أهل المدينة يشهد دفن أحد أصحابه ، وعليه كساءان غليظان يلتحف بهما، وهو جالس مع أصحابه ، فسلم عليه ثم استدار لينظر إلى ظهره علّه يرى الخاتم الذي وصفه له صاحب «عمورية » ففهم الرسول ﷺ مقصده ، وعلم أنه يريد أن يتثبت من شيء فألقى رداءه عن ظهره، فظهر الخاتم ورآه سلمان رضي الله عنه وعرفه ، فأقبل على قدمي رسول الله ﷺ يقبلهما وهو يبكي ، فاستنهضه رسول الله ﷺ واحتضنه وهو يسأله : ما شأنك ؟

فحكى سلمان رضي الله عنه قصته كاملة، فأعجب بها رسول الله ﷺ ، ولما لا يعجب

بل لما لا يعجب أي سامع لها ، وهي قصة رجل ترك حياة الترف والبذخ والقصور والضياع ، وهاجر في الأرض بحثاً عن الحق والحقيقة ، حتى وصل إليهما ، ضارباً بما لاقاه في سبيلهما من رق وعبودية عرض الحائط بعد أن كان السيد في قصر أبيه .

أسلم سلمان رضي الله عنه ولكن حال الرق دون حضوره غزوة بدر وغزوة أحد بعدهما كان سلمان رضي الله عنه على موعد مع الحرية ، بل على موعد مع حضور المشاهد مع رسول الله ﷺ ، بل على موعد مع قافلة بيت النبوة ينال شرف الانتساب إليها . . .

***

في المدة بين غزوة أحد وغزوة الخندق قال رسول الله ﷺ لسلمان رضي الله عنه ذات يوم : كاتب يا سلمان (والمكاتبة هي اتفاق بين العبد وسيده على مال يدفعه له على أقساط ، أو على عمل يعمله له وبعد ذلك يصير حراً) .

فكاتب سلمان رضي الله عنه سيده اليهودي على ثلاثمائة نخلة يغرسها له ، ويتعهدها حتى تنبت ، وعلى أربعين أوقية من الذهب . فأمر الرسول ﷺ الصحابة بإعانة سلمان ، فأعانوه بفسائل[1] النخل كل حسب قدرته ، حتى اجتمعت له ثلاثمائة فسيلة ، فأمر الرسول ﷺ بأن يحفر لها ، فإذا فرغ أعلمه حتى يغرسها بيده ، ففعل سلمان رضي الله عنه ، وأعانه الصحابة رضوان الله عليهم .

وجاء رسول الله ﷺ ، فكانوا يقربون له الفسائل ، ويضعها بيده مكانها ، فما ماتت منها واحدة . فأدى سلمان رضي الله عنه ما عليه من النخل وبقيت عليه الأربعين أوقية ثم ما لبث أن جاء إلى رسول الله ﷺ مال وفيه مثل بيضة الدجاج من الذهب ، فدعا سلمان رضي الله عنه وقال له : خذ هذه فقال سلمان رضي الله عنه : وأين تقع مما عليّ ؟ إن ما عليّ كثير يا رسول الله .

فقال النبي ﷺ : خذها فإن الله سيؤدي بها عنك . فأخذها سلمان ووزنها لسيده فبلغت أربعين أوقية . فأوفاه حقه ببركة النبي ﷺ ، بعدها أصبح سلمان ﷺ حراً مسلماً ، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبو الدرداء رضي الله عنه ، وبعد فترة قصيرة

---

(1) الفسائل : جمع فسيلة ، وهي النخلة الصغيرة .

هاجمت قريش وبعض قبائل العرب المدينة المنورة فيما يعرف بغزوة الأحزاب ، في شهر شوال السنة الخامسة للهجرة ، وفيها ظهرت عبقرية سلمان رضي الله عنه العسكرية .

❊ ❊ ❊

خرج زعماء اليهود إلى مكة وقبائل العرب يحرضونهم على حرب المسلمين حرباً شاملة ، تقتلع جذورهم وجذور هذا الدين الجديد .

تجمع الأحزاب واتجهوا نحو المدينة المنورة ، وما أن علم الرسول ﷺ بهذا الأمر حتى جمع أصحابه واستشارهم ، فأجمعوا أمرهم على القتال والدفاع عن دينهم وأنفسهم . ولكن عدد المشركين كبير ، إنه يبلغ عشرة آلاف مقاتل ، فكيف يكون الدفاع ؟؟!!

هنا تقدم سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي كان قد ألفَ المدينة المنورة، وخبر طرقها ومداخلها ومخارجها ، وعلم أنها محصنة بالجبال من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة وهي جهة الشمال فيستطيع أن يدخل منها المشركون ، ويهجمون على أهلها وكان رضي الله عنه قد علم بعض وسائل الحرب في بلاد فارس التي جاء منها .

فتكلم بعد استئذان رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، وأرى أن المدينة محصنة من جهات ثلاث ، ومكشوفة من الرابعة ، وهي الشمالية ، فأرى أن نحفر خندقا يسد الجهة الرابعة التي سيأتي منها المشركون وهم لا شك مهاجمون منها ، فرأى الرسول ﷺ أنها خطة حكيمة تحفظ السلامة للمدينة وأهلها ، فوافق عليها ، وقام المسلمون بقيادة الرسول ﷺ بحفر الخندق ، وكانت خطة العمل أن كل عشرة يحفرون أربعين ذراعاً ، وكان معهم رسول الله ﷺ يحفر وينقل الرمل والحصى والتراب ، ويحفزهم على العمل يومها وقف المهاجرون ، وقالوا : سلمان منا .

وقالت الأنصار : سلمان منا وحسم الرسول ﷺ هذا النزاع الشريف بقوله : « سلمان منا آل البيت » وحق لسلمان رضي الله عنه هذا الشرف ، وهذا الإنتساب ، ولذلك عندما كان يُسأل عن نسبه كان يقول : أنا سلمان ابن الإسلام من بني آدم .

وخلال حفر الخندق اعترضت سلمان رضي الله عنه صخرة فاستعصت عليه ، وكان

رسول الله ﷺ قريباً منه، فأخذ المعْوَل [1] وقال : بسم الله ، ثم ضرب الصخرة ضربة فلمعت ، وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحُمر الساعة ، ثم ضرب ثانية فلمعت مرة ثانية ، وقطع جزء أخر من الصخرة .

وقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ثم ضرب ضربة ثالثة فلمعت مرة ثالثة ، وتهاوت الصخرة وهي تلمع ، وقال ﷺ الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء . وقد عاش سلمان رضي الله عنه حتى رأي تلك البشريات .

وبعد أن تم حفر الخندق ، وأتت الأحزاب فوجئت بهذه المكيدة ، وقالوا : هذه مكيده لم تعرفها العرب قبل ذلك . عندها شعر سلمان رضي الله عنه بأنه قدم شيئاً للإسلام وحمى المسلمين بفكرة ألهمه الله تعالى إياها .

***

عاش سلمان رضي الله عنه زاهداً عابداً لله رب العالمين ، خائفاً من الدنيا ، راغباً في الآخرة لا يملك من الدنيا شيئاً . محباً لإخوانه ، حريصاً على زيارتهم ، محباً للعلم والعلماء ومجالس العلم ، ويتضح ذلك من خلال المواقف المروية عنه .

فمما يروى عن اعتداله في العبادة أنه دخل يوما دار أبي الدرداء رضي الله عنه وكان الرسول ﷺ قد آخى بينهما ـ فوجد زوجته أم الدرداء بلباس منزلها ، فسألها : ما شأنك ؟

فقالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، دائم الصيام نهاراً ، والقيام ليلاً . . فأطرق سلمان رضي الله عنه برأسه إلى الأرض يفكر ثم دخل أبو الدرداء رضي الله عنه فسلم عليه ثم أمر له بالطعام ، وقال له : كل فإني صائم ـ وكان الصوم نافلة ـ فقال سلمان : ما أنا بآكل حتى تأكل ، وما زال به حتى أكل معه، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يصلي فقال له سلمان رضي الله عنه : نم . فنام .

فلما كان آخر الليل قال سلمان رضي الله عنه : قم الآن . فقاما وصليا معاً ، ثم قال له سلمان رضي الله عنه : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ،

(1) المعْوَل : آله من الحديث لتكسير الصخور والحجارة .

فأعط كل ذي حق حقه . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : صدق سلمان . أو « لقد أشبع سلمان علمًا » .

ومما يروى عن انفاقه ، أنه عندما كان أميراً على المدائن كان عطاؤه خمسة آلاف درهم ، فكان يوزعه كله ، ولا يترك لنفسه درهماً واحداً يبيت معه ، وكان يأكل من كسب يده ، يصنع الخوص ـ وكان قد تعلمه في المدينة المنورة ـ ثم يبيعه . وكان يقول : اشتري خوصاً بدرهم ، فأعمله وابيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهمًا فيه ، وأنفق درهماً على عيالي ، وأتصدق بالثالث .

ومما يروى عن تواضعه ، أنه عندما كان أميراً لقي رجلاً من الشام يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً فأبصر سلمان رضي الله عنه وهو لا يعرفه ، فقد ظنه من عامة الناس لما يبدو عليه من تواضع المظهر والهيئة فقال له : احمل عني . فأجابه سلمان وحمل معه ، وسارا معاً حتى رأهما الناس ، فسلم سلمان رضي الله عنه ، فردوا التحية قائلين وعلى الأمير السلام . فبهت الرجل ، وظهر ذلك على وجهه ، فلاحظه سلمان رضي الله عنه ، فقال له : لا عليك . وأراد الرجل أن ينتزع حمله ليحمله بنفسه فرفض سلمان رضي الله عنه قائلاً : لا فقد نويت فيه نية أنه لله ، فلا أضعه حتى أبلغ بيتك .

ومما يروى عن تواضعه ورحمته أنه دخل عليه أحد أصحابه يوماً في بيته فوجده يعجن بنفسه ، فسأل الصاحب متعجباً : أين الخادم ؟!

فأجابه سلمان رضي الله عنه : لقد بعثناها في حاجة خارج الدار ، فكرهنا أن نجمع عليها عملين .

وأما عن إخوانه فكان محباً لهم ، حريصاً على زيارتهم ، والسؤال عنهم ، والدعاء لهم ، ونصحهم وإرشادهم ، فقد جاءه رجلان يوماً فسلما عليه ، وسألاه : أنت سلمان الفارسي ؟ قال : نعم . قالا : أنت صاحب رسول الله ﷺ قال : لا أدري . فارتاب الرجلان . وقالا : لعله ليس الذي نريده فقال لهما : أنا صاحبكما الذي تريدان . إني قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته ، وإنما صاحبه من دخل معه الجنة!! فما حاجتكما ؟ قال : جئناك من عند أخ لك بالشام . فقال : من هو ؟

قالا : أبو الدرداء رضي الله عنه قال : فأين هديته التي أرسل بها معكما ؟ قالا : ما أرسل معنا هدية . فقال لهما : اتقيا الله وأديا الأمانة ! ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه بهدية . قالا : والله ما بعث معنا بشيء إلا أنه قال لنا : إذا أتيتما سلمان فأقرئاه مني السلام . قال سلمان رضي الله عنه : فأي هدية كنت أريد منكما غير هذه ، وأي هدية أفضل من السلام ، تحيه من عند الله مباركة طيبة . .

وقد أرسل له يوما أبو الدرداء رضي الله عنه برسالة فيها : سلام عليك ، أما بعد فإن الله رزقني بعدك مالاً وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة[1] فرد عليه سلمان رضي الله عنه بكتاب جاء فيه : سلام عليك أما بعد ، فإنك كتبت إليّ أن الله رزقك مالاً وولداً ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حلمك ، وأن ينفعك علمك ، وكتبت إلى أنك نزلت الأرض المقدسة ، وأن الأرض لا تعمل لأحد ، اعمل كأنك ترى الله ، واعدد نفسك من الموتى .

ومما يروى عن زهده أنه عندما أراد بناء بيت ، سأل البناء : كيف ستبنيه ؟ فأجابه البنّاء وكان يعرف زهد سلمان رضي الله عنه : إنه بيت يحميك من حرارة الشمس صيفاً ، ومن برد الشتاء ، ليس بالمرتفع ولا المتسع ، إذا قمت كاد أن يصيب رأسك سقفه ، وإذا نمت كاد أن يصيب رجليك جدرانه . فقال سلمان رضي الله عنه : هكذا فاصنع .

وهكذا عاش سلمان متواضعاً زاهداً ورعاً حتى وافته المنية .

* * *

إن سلمان رضي الله عنه الآن على فراش الموت ، وها هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدخل عليه يعوده ، فيجده يبكي ، فيقول له : ما يبكيك ؟ تلقي أصحابك ، وترد على رسول الله ﷺ الحوض ، وقد كانت لك سابقة في الخير ، وقد شهدت مع رسول الله ﷺ مغازي حسنة وفتوحاً عظيمة ، وقد توفى وهو عنك راض . فيجيب سلمان رضي الله عنه : ما أبكي جزعاً من الموت ، فهو طريق للقاء ربي ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا وأوصانا قائلاً : ليكن بُلغة[2] أحدكم من

---

(1) الأرض المقدسة : أرض فلسطين .

(2) البُلغة : ما يكفي لسد الحاجة دون زيادة .

الدنيا كزاد الراكب ، وها أنا ذا حولي هذه الأساود [1] وينظر سعد رضي الله عنه ليري ما حوله ، فلا يجد إلا جفنة ـ أنية للطعام ـ ومطهرة ـ وعاء يوضع فيه الماء للطهارة والوضوء ـ فيرق سعد رضي الله عنه له ، وتطرق من عينيه الدموع وهو يقول : يا أبا عبد الله اعهد إلينا عهداً نأخذ به بعدك . فيقول سلمان رضي الله عنه : اذكر ربك عند همك إذا هممت ، وعند حكمك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت .

ويخرج سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، بعدها تدخل زوجة سلمان ، فإذا هو يحتضر ، فقال لزوجته : افتحي هذه الأبواب فإن لي زواراً لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون عليّ ؟ ثم ائتني بقارورة [2] المسك التي أعطيتك إياها يوما ما ، وائتني بقدح ماء ، وانثري المسك فيه واخلطيه ، ثم رشيه حول فراشي ، فإن زوّاري لا يأكلون الطعام ، وإنما يحبون الريح الطيبة ، ثم اتركيني وحدي وانزلي .

وفعلت الزوجة ما أمرها به زوجها ، وبعد مدة قصيرة صعدت الزوجة فإذا روحه الطاهرة قد صعدت إلى بارئها ، وكأنه نائم على فراشه .

صعدت روح سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى خالقها لتنعم بجنان الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

رحم الله سلمان الفارسي الذي ظل يبحث عن النور حتى وجده وسار فيه .

رحم الله سلمان الفارسي الذي بدء حياته باحثاً عن الحق حتى وجده ، وعندما وجده عاش له ، وعاش به ، ومات عليه .

*** من فضائل سلمان الفارسي رضي الله عنه .**

(1) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان » رواه الترمذي .

(2) سئل على بن أبي طالب رضي الله عنه عن سلمان ، فقال : عَلِم العلم الأول ، والعلم الآخر ، وهو بحر لا ينزف ، وهو منا أهل البيت .

---

(1) الأساود : هي الأشياء الكثيرة من متع المنزل أو المال الكثير .

(2) القارورة : وعاء من الزجاج لحفظ السوائل .

(3) صهيب الرومي رضي الله عنه

أتى أبو سفيان بن حرب يوماً المدينة المنورة في فترة الهدنة بعد صلح الحديبية ، وكان وقتها لازال على شركه، فمر مع نفر[1] معه من المشركين على سلمان الفارسي، وبلال بن رباح الحبشي ، وصهيب الرومي ، فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها . فقال لهم أبوبكر الصديق رضي الله عنه : وكان جالساً معهم : أتقولون هذا لشيخ قريش ، وسيدهم ؟

فأتى النبي ﷺ فأخبره بما حدث . فقال النبي ﷺ : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد اغضبت ربك » فعاد إليهم أبوبكر رضي الله عنه ، فقال : يا اخوتاه ! أغضبتكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخي .

صهيب بن سنان الرومي صحابي جليل الذي يغضبه فكأنما أغضب الله تعالى ، وهو سابق الروم إلى الجنة باع نفسه لله تعالى وأنزل الله في حقه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة . والأسئلة التي نطرحها ، هل هو حقًا رومي ، أم من العرب ؟

فإذا كان من العرب فكيف جاء هذا اللقب ؟

وإذا كان من الروم فكيف جاء إلى أرض العرب ؟

ما هي قصه إسلامه ، وحياته وفضائله ؟

هيا بنا نقلب الأوراق لنعرف إجابات هذه الأسئلة وغيرها .

* * *

هاجر أجداد صهيب قديماً من أرض العرب إلى العراق ، وكانت وقتها تابعة لبلاد فارس وذلك قبل البعثة النبوية بسنوات كثيرة . وقبل البعثة بسنوات كان سنان والد صهيب حاكماً من قبل كسرى ملك الفرس على الأُبُلّة ، وهي مدينة عراقية قديمة أصبحت اليوم جزءاً من البصرة .

---

(1) النفر : عدد من ثلاثة إلى عشرة .

ولد صهيب في قصر أبيه ، حيث النعيم والترف ، وقد شهد القصر الطفولة المبكرة لصهيب ذلك الطفل الأبيض الوجه باشراق وصفاء، وصاحب الشعر الأحمر الغزير .

عاش صهيب طفولة سعيدة مترفة لا يعكرها شيء . ولكن لم يدم هذا النعيم طويلاً إذ عندما كان صهيب في الخامسة من عمره أغارت [1] الروم على الأبلة ، وأخذوا صهيباً أسيراً معهم إلى بلادهم وهناك نشأ وشب وتعلم لغتهم وصارت بلسانه لَكْنة[2] رومية ، ولكن هذا لم يمحو من ذاكرته أنه عربي الأصل، فليس بفارسي كما ولد ونما ، وليس برومي كما نشأ وشب .

بيع صهيب في أسواق الرقيق ببلاد الروم وانتقل من سيد إلى سيد حتى وصل إلى مكة المكرمة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان ، فوجد فيه الشاب الأمين النابه الذكي ، والمخلص الوفي ، هكذا يدل سلوكه ، وتنم أخلاقه ، فأعتقه وحرره وأتاح له فرصة العمل معه في التجارة ، فأظهر أمانة عالية في البيع والشراء ، وسماحة في التعامل والمقاضاة فكثر ماله بعد قلة، وازداد بعد نقص ، ولما لا وهو ذو العقل الراجح الذي يضع الأمور في نصابها الصحيح ، ويزنها ويضعها في موضعها الدقيق .

وها هو ذا عقله الراجح يقوده إلى طريق الخير والنور والهداية ، وذلك عند ظهور الإسلام .

***

عاش صهيب في مكة المكرمة ، وخَبَر رجالها وأخلاقياتهم ، وكان يسمع عن محمد بن عبد الله ذلك الذي يلقبونه بالصادق الأمين ، الذي ينال حب واحترام الجميع ، وكان صهيب يرى فيه الصورة المثالية التي ينبغي أن يكون عليها كل إنسان حتى تستقيم الحياة .

وعندما بعث الرسول ﷺ برسالته ، وانتشر خبر الدين الجديد ، تناقل الناس في

---

(1) أغار : هجم .

(2) لكنة : ثقل في النطق ، وصعوبة في الإفصاح بالعربية .

أحاديثهم وجلساتهم هذا الأمر ، وسمع به صهيب رضي الله عنه شأنه شأن كل سامع ، وكان يعلم أن محمد بن عبد الله لا ينطق لسانه بكذب ، فما يقول إلا صدقاً ولا يتلفظ إلا حقاً .

سأل صهيب رضي الله عنه عن مبادئ هذا الدين ، بطريقة غير مباشرة ، زبائنه من المشترين ، فعلم أنه دين يدعو إلى مكارم الأخلاق ، والحق ، والعدل ، والمساواة ، والإحسان ، وينهي عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغي ، والظلم ، والعدوان .

فقال في نفسه : إن ديناً كهذا لجدير بالإتّباع والدخول فيه ، والدفاع عنه ، والصبر عليه حتى يظهره الله تعالى . وقرر صهيب رضي الله عنه الدخول في هذا الدين ، وكان يعلم أن محمد بن عبد الله ﷺ يجتمع مع أتباعه في دار الأرقم بن أبي الأرقم فذهب إلى هناك مستخفياً ، يحذر أن يرصده أحد ، وعند الباب كانت المفاجأة .

***

على باب الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه التقى صهيب بن سنان رضي الله عنه بعمار بن ياسر رضي الله عنه كلاً منهما يريد الدخول على رسول الله ﷺ ، والنطق بالشهادتين ، والدخول في الإسلام ، ويبدو أن كلاً منهما كان يحذر الآخر ويتوجس منه خيفة ، ولذا كان بينهما الحوار التالي :

- عمار رضي الله عنه : ماذا تريد يا صهيب ؟

- صهيب رضي الله عنه : وأنت ماذا تريد ؟

- عمار رضي الله عنه : أريد أن ادخل على محمد فاسمع كلامه .

- صهيب رضي الله عنه : وأنا أريد ذلك ، ولكن هل تبعك أحد ؟

- عمار رضي الله عنه : ليس من أحد سواك جاء خلفي ، فهيا ندخل على الصادق ونسمع منه .

ودخلا على رسول الله ﷺ واستمعا إليه وهو يتلو القرآن الكريم ، ويعرض عليهما الإسلام ، فأسلما ودخلا في دين الله ، ظلا يومهما ، وعندما حل المساء خرجا مستخفيين كما دخلا .

وكان صهيب رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ، وكان أيضاً من المستضعفين

الذين أوذوا وعذبوا في سبيل هذا الدين ، وكان أيضاً من الصابرين الثابتين على الحق ، ولم يشفع له حِلْفه السابق مع عبد الله بن جدعان .

ظل صهيب في مكة المكرمة ، فلم يهاجر إلى الحبشة في المرة الأولى أو الثانية ، تحمل العذاب والشدائد رافضاً العودة من النور إلى الظلمات ، ومن الهدى إلى الضلالة ، حتى أذن الله تعالى للنور أن يشرق في مكان جديد ، فكانت الهجرة إلى المدينة المنورة .

هاجر المستضعفون وجميع المسلمين من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم بعد أن أصبحت المدينة المنورة الأرض الخصبة لنمو الإسلام ، وكان من المفترض أن يهاجر صهيب مع من هاجر إلا أنه حدث ما أخّر هجرته ولم يهاجر إلا بعد هجرة الرسول ﷺ ، ولهجرته حكاية جديرة بالرواية .

* * *

تسلل [1] صهيب من بيته ، واعتلى ناقته وخرج بها من مكة تحت جنح الظلام محاولاً اللحوق برسول الله ﷺ الذي سبقه بقليل إلى المدينة المنورة ولكن ما أن أشرق الصباح إلا وشعر بخروجه بعض أهل مكة ، فارسلوا خلفه من يأتى به . ويمضي صهيب رضي الله عنه في طريقه والطالبون خلفه حتى لحقوا به ، فأخرج سهامه وكنانته [2] ، واستوقفهم فوقفوا وناداهم .

قائلاً : يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم وأكثركم إصابة . . . ووالله لن تصلوا حتى أرميكم بكل سهم معي ، وأضع في كل رجل منكم سهماً ، ثم أقاتلكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، وإن شئتم دللتكم على مالي ، فخذوه وخلوا سبيلي . فقالوا له : نعم ، لقد أتيتنا صعلوكاً [3] فقيراً لا تملك مالاً فامتلكت مالاً ، وكثر مالك عندنا ، وتخرج من بيننا بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك أبداً .

---

(1) تسلل : خرج خفية .

(2) الكنانة : وعاء توضع فيه السهام .

(3) الصعلوك : الضعيف الفقير .

فقال صهيب رضي الله عنه : فمالي لكم على أن تتركوني وشأني . فقالوا : وأين هو ؟ فقال : لقد وضعت مالي أسفل عتبة باب منزلي ، فاحفروا وخذوه .

وعاد القرشيون يأخذون مال صهيب رضي الله عنه مصدقين ما أخبرهم به ، أما هو فمضى في طريقه يجد السير حتى لحق برسول الله ﷺ عند قباء [1] لم يدخل المدينة بعد . فتلقاه رسول الله ﷺ بابتسامته المعهودة .

وقال له : ربح البيع أبا يحيي . . ربح البيع أبا يحيي . ثم تلا قول الله تعالى الذي نزل في حق صهيب رضي الله عنه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : 207] .

كلمات نيرات نزلت في حق رجل باع الدنيا بالآخرة ، و ضحى بماله كله في سبيل صحبة الرسول ﷺ ، بل هو على استعداد أن يضحي بحياته فداءً لدين الله تعالى . كلمات تتلي إلى يوم القيامة .

* * *

عاش صهيب بن سنان رضي الله عنه مع اخوانه المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة ، وكان من أهل الصُّفّة ، وهم فقراء المهاجرين الذين كانوا يأوون إلى مسجد المدينة ويرعاهم الرسول ﷺ .

وكان رضي الله عنه ورعاً تقياً فاضلاً ملازمًا لرسول الله ﷺ ، فقد شهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وها هو يقول عن نفسه : ما شهد رسول الله ﷺ مشهداً قط ، إلا كنت حاضراً معه ، ولا بايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ، وما سار بسريه قط إلا كنت معه ، ولا غزا غزوة قط إلا كنت عن يمينه أو شماله فيها ، وما خاف المسلمون من أمامهم قط إلا وكنت أمامهم ، ولا خافوا خلفهم قط إلا وكنت خلفهم ، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط حتى توفي .

وكان صهيب رضي الله عنه مع شجاعته يمتلك روح الدعابة ، وحضور البديهة ،

---

(1) قباء : موضع قرب المدينة على بعد ميلين منها .

وحسن الخلق ، فيروى أنه ذات يوم ـ وكان بإحدى عينيه رمد ـ أتى النبي ﷺ فوجده مع أصحابه وبين أيديهم تمر فجلس وأكل معهم ، فداعبه رسول الله ﷺ : « أتأكل التمر وأنت أرمد »

فأجاب صهيب رضي الله عنه : إنما أكل على شق عيني الصحيحة . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه [1] .

بعد وفاة رسول الله ﷺ واصل صهيب رضي الله عنه جهاده وحياته في خلافة الصديق رضي الله عنه حتى توفاه الله تعالى ، وتولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يحب صهيباً ، ويقربه منه دائماً .

وكان صهيب رضي الله عنه منفقاً للمال مطعماً للطعام ، جواداً كريماً ، وكانت بلسانه لكنة الروم لا تزال ملازمة له ، وقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل يوما بستانًا لصهيب مع مولاه أسْلَم فلما رآهما صهيب رضي الله عنه سلما عليهما ونادى غلاماً له يسمى يُحنس فخرجت من لسانه هكذا « يُهَنَّسْ » فقال عمر رضي الله عنه بتعجب : ماله يدعو بالناس ؟

فقال أسلم : يا أمير المؤمنين ، إنما يدعو غلاماً له يسمى يُحَنّس وإنما قال ذلك لعقدة في لسانه . فقال عمر رضي الله عنه مخاطباً صهيب : ما فيك شيء أعيبه يا صهيب إلا ثلاث خصال لولاهن ما قدمت عليك أحداً .

فقال صهيب رضي الله عنه : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر رضي الله عنه : أراك تنتسب عربياً ولسانك أعجمي ، وتكنى بأبي يحيى وهو اسم نبي ، وتبذر مالك .

فقال صهيب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أما تبذير مالي فما أنفقه إلا في حقه ، وإن رسول الله ﷺ كان يقول : « . . . خياركم من أطعم الطعام ورد السلام » ، وأما اكتنائي بأبي يحيي ، فإن رسول الله ﷺ كنّاني بأبي يحيي فلن أتركها ، وأما انتمائي إلى العرب فإن الروم سبتني صغيراً ، فأخذت لسانهم ولهجتهم ولا حيلة لي في ذلك ، وأنا رجل من النّمربن قاسط (قبيلة عربية) فقال عمر رضي الله عنه : صدقت .

---

(1) النواجذ : جمع ناجذ ، وهو الأضراس والمعنى أنه استغرق في الضحك .

وبلغ من تقدير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعرفته بفضل صهيب ومكانته ورجاحة عقله ، وحسن الظن به أنه لما طُعن بيد أبي لؤلؤة المجوسي أوصى أن يصلي بالناس صهيب، حتى ينتهي أهل الشورى الستة من اختيار الخليفة وأوصى كذلك أن يصلي عليه صلاة الجنازة .

وذهب عمر رضي الله عنه للقاء ربه ،ودفن مع صاحبيه ، وتولي الخلافة بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه وبعده على رضي الله عنه وفي خلافة على رضي الله عنه سنة ثمان وثلاثين للهجرة توفي رحمه الله تعالى وعمره ثلاث وسبعين سنة ، ودفن بالمدينة المنورة بالبقيع بجوار الصحابة الكرام عليهم من الله الرضوان .

رحم الله تعالى أبا يحيي صهيب بن سنان الرومي السابق إلى الإسلام ، والسابق إلى الجنة ، وسلام عليه في الأولين والآخرين .

*** من فضائل صهيب بن سنان رضي الله عنه .**

(1) دخل صهيب رضي الله عنه قادما من مكة مهاجراً إلى النبي ﷺ فقال له : « **ربح البيع أبا يحيى . ربح البيع أبا يحيى** » أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم .

* * *

(4) عمار بن ياسر - رضي الله عنهما -

بشره الرسول ﷺ بالجنة، وبشر أباه وأمه ، وأمرهم بالصبر والثبات على الحق، وقال لهم : « صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة» فالجنة تشتاق لمثل هؤلاء أكثر مما يشتاقون هم إليها . . إنهم آل ياسر ، الأب ياسر بن عامر والأم سمية بنت خياط ، وثمرة زواجهما هذا الشاب الذي رزقهما الله إياه فَسَمَّوْه عماراً . فمن هو عمار ، ومن هذه الأسرة ، ومن أين أتت ،وأي عذاب لاقوه ، وكيف كانت حياة عمار ، وما هي فضائله ، وجهاده ، وصبره ، وشجاعته .

***

لم يكن ياسر بن عامر مكياً بل أتى إليها مع أخويه الحارث ومالك في طلب أخ رابع لهم فلم يجدوه ، فعاد الأخوان إلى اليمن من حيث أتيا ، أما ياسر فقد شدته مكة إليها ، فبقي فيها ، واستوطنها ، ولّما لم يكن له من قبيلة تحميه وتمنعه ، وتمنع عنه عدوان الظالمين طبقاً لقوانين ! لجاهلية التي يأكل فيها القوي الضعيف ، لذا فقد حالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي ، ليجد عنده الحماية وليدفع عنه شرور الظالمين وقد زوجه أبو حذيفة أمة له تسمي « سمية بنت خياط » فرزقهما الله عماراً .

ولما أشرق نور الإيمان بمكة المكرمة ، وبُعث محمد بن عبد الله برسالة الإسلام سارعت هذه الأسرة إلى الدخول في هذا الدين ، فكانت من السابقين إلى الإسلام ويوم أن ذهب عمار إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه ليقابل الرسول ﷺ ويسمع منه ، وينطق بالشهادتين بين يديه وجد على الباب صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه فلقد أسلما في يوم واحد .

وشأن هذه الأسرة الفقيرة كغيرها من المستضعفين لاقت نصيبها من العذاب والأذى في سبيل الله ، فما أن علمت قريش وبنو مخزوم بإسلامها حتى بدأوا في تعذيبها ، عساها أن تعود إلى ما كانت عليه ، ولكن هيهات فأنى لمن وجد الحق أن يعود للباطل مرة أخرى ، وأنى لمن خرج من النار أن يعود لها ثانية .

ويشتد العذاب على هذه الأسرة الضعيفة ، ويُخرج بها إلى الصحراء الحامية ، وتكوى بالحديد والنار ، ويُمنع عنها الماء والطعام وهي ثابتة على الحق لا تتزحزح عنه قيد أنملة ويمر الرسول ﷺ بهم وهم يعذبون ولا يملك لهم دفعاً للأذى فيرق لحالهم ويبشرهم قائلاً : « **صبرا آل ياسر ـ موعدكم الجنة** » .

وكان العذاب يشتد والصبر أيضاً حتى عجب المشركون واغتاظ أخرون ، ودفع الغيظ أبا جهل أن يطعن بحربته سمية أم عمار رضي الله عنها في قلبها فكانت أول شهيدة في الإسلام ، وحسبها هذا الشرف ، وهذه الأولية .

وأما ياسر رضي الله عنه فقد مات تحت وطأة [1] التعذيب ، فلم تتحمل شيخوخته ألوان العذاب ، فمضى إلى ربه راضياً مرضياً يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ولم يبق من هذه الأسرة الكريمة إلا عمار رضي الله عنه .

***

مات والد عمار ياسر بن عامر ، وماتت أمه سمية بنت خياط ، كلاهما حاز فضل الشهادة وقبلها نال البشرى بدخول الجنة ، وبقي عمار وحيداً يكال له العذاب .

اشتد العذاب على عمار رضي الله عنه أكثر وأكثر ، فكانوا يجيعونه ويعطشونه ، ويحرقونه بالنار حتى يغيب عن الوعي ، ولا يدري ما يقول ، ويمر به الرسول ﷺ ويقول : « **يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم** » .

وتتنوع أساليب تعذيب عمار وتتعدد ، حتى أنهم كانوا يغطونه [2] في الماء حتى يشرف على الغرق فيخرجونه وهو غائب عن الوعي ، فيقولون له : اذكر ألهتنا بخير فيردد خلفهم ما يملونه عليه وهو لا يعي ما يقول ، ولا يدري ما يتلفظ به لسانه ، ويقولون له أيضاً : اللات والعزى ألهتك من دون الله ؟ فيقول : نعم .

وذات يوم أقبل عمار رضي الله عنه على رسول الله ﷺ حزيناً باكيا يدلك عينيه ، فسأله رسول الله ﷺ : ما لك يا عمار ، وماذا وراءك ؟

---

(1) وطأة : الضغط الشديد .

(2) يغطونه : يغمسونه .

فقال : شر يا رسول الله فقال ﷺ : وما ذاك ، أخذك الكفار فغطوك في الماء ، فقلت كذا وكذا . فقال عمار رضي الله عنه : نعم يا رسول الله . فقد عذبوني عذابا لا يحتمل ووالله ما تركوني حتى نلت منك ، وذكرت ألهتهم بخير .

وسأل رسول الله ﷺ : وكيف تجد قلبك؟ فأجاب عمار : مطمئن بالإيمان . فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعد .

ولفضل عمار رضي الله عنه ومنزلته نزل في حقه قول الله تعالى ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النحل : 106] .

* * *

وتمضي الشهور والسنون ، ويأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة ، ويكون عمار رضي الله عنه من أوائل المهاجرين مع بلال بن رباح ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، ويهاجر بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ويصل قباء ويؤسس فيها مسجداً ، ويبني عمار رضي الله عنه هذا المسجد ، ويكون بذلك أول من بني مسجداً في الإسلام ، ويكفيه ذلك فضلاً وشرفاً وفخراً وفي حق هذا المسجد نزل قول الله تعالى ﴿ **لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة : 108] .

وفي أثناء بناء المسجد النبوي كان الصحابة ينشدون

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب[1] فيها قائماً وقاعداً

ومن يُرى عن الغبار حائداً[2]

فاخذ عمار رضي الله عنه يردد الأنشودة في ناحية من النواحي بصوت عال ؛ ليجدد نشاطه ، ويلهب حماسه ، فسمعه أحد الصحابة وظن أنه يعرّض به ، فأغلظ له في القول ، وقال له : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يابن سمية ، والله إني لأراني

(1) يدأب : يجد ويداوم .
(2) حائداً : مائلاً ومتبعداً .

سأعرض هذه العصا لأنفك ، وكانت في يده عصا ، فغضب رسول الله ﷺ لما علم بذلك ، وقال : مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار .

ومرة أخرى يدخل عمار على رسول الله ﷺ ، وقد حمّلوه من الطوب اللبن[1] ما لا يطيق . فقال : يا رسول الله قتلوني ، يحَمِّلون عليّ ما لا يحْملُون . فينفض الرسول ﷺ بيده الشريفة التراب من على وجهه وصدره وهو يبتسم ويقول له : «**ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية**» . وفي رواية أخرى ، « **ابشر يا عمار تقتلك الفئة الباغية**» .

قال ذلك وسمعه جمع من الصحابة ، وحفظوا عمار هذه البشرى، كما حفظها من سمعها ، ولكن من هذه الفئة الباغية ؟

***

كان لعمار رضي الله عنه المكانة العليا، والمنزلة العالية في قلب رسول الله ﷺ ،وكان إذا أراد الدخول عليه ﷺ استأذن ، فيأذن له النبي ﷺ قائلاً : ائذنوا له مرحبًا بالطيب المطيب .

وكذلك كان عمار رضي الله عنه محبّاً لرسول الله ﷺ ، ملازمًا له ، مشاركاً معه في جميع الغزوات ، من بدر إلى أحد إلى الخندق إلى آخر غزوات النبي ﷺ وفي غزوة بدر كان عمار رضي الله عنه المسلم الوحيد الذي قاتل وأبواه شهيدان .

وذات يوم أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه أميراً على سرية ، وكان فيها عمار رضي الله عنه ، فلما اقتربت السرية من القوم هربوا وتركوا منازلهم ، إلا رجل مع أهل بيته كانوا قد أسلموا .

فدخل الرجل على عمار رضي الله عنه ليلاً ، وقال له : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت مع أهل بيتي ، فماذا أفعل ؟ فقال له : أقم حيث أنت ، فأنت أمن . فانصرف الرجل بعد أن أخذ وعداً بالأمان .

أتى خالد بن الوليد رضي الله عنه القوم صباحاً ، فوجدهم قد هربوا في الجبال إلا هذا الرجل مع أهل بيته ، فأخذه فقال له عمار رضي الله عنه : لا سبيل لك عليه ، فإنه قد أسلم

---

(1) الطوب اللبن : الطوب النيء المصنوع من الطين .

فقال خالد : أتجير عليّ وأنا الأمير ؟ فقال عمار : نعم أجير عليك وأنت الأمير . إن الرجل قد آمن ، ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه . فتنازع خالد وعمار رضي الله عنهما في هذا الأمر فاغلظ خالد القول لعمار .

فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله ﷺ فشكى عمار خالداً إلى النبي ﷺ فأجاز أمان عمار رضي الله عنه ونهى بعد ذلك أن يجير أحد على الأمير ، فتنازعا مرة أخرى ، وأغلظ خالد القول لعمار ، فبكى عمار وقال : يا رسول الله ، ألا تراه ، فرفع رأسه ﷺ وقال : « **من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً أبغضه الله** » . فذهب عمار ، وتبعه خالد بن الوليد يعتذر له ، ويترضاه حتى رضى .

وبلغ من تقوى عمار رضي الله عنه وورعه ومكانته لدى رسول الله ﷺ أنه جعله قدوة يقتدى به ، ومثلاً أعلى يحتذى به ، فقال في حقه : « اقتدوا بالذين من بعدي ، أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدي عمار ، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد » .

ويمضي رسول الله ﷺ للقاء ربه ويتولى الخلافة الصديق رضي الله عنه ويبدأ خلافته بمحاربة المرتدين ، وإعادتهم مرة أخرى إلى حديقة الإسلام ، ويكون عمار بن ياسر رضي الله عنهما في الصفوف الأمامية . وفي موقعه اليمامة أثناء قتل جيش مسيلمة الكذاب ينكسر المسلمون أول الأمر ، ويكثر فيهم القتل ، وهنا تظهر شجاعة الشجعان وبطولة الأبطال ، فيقف عمار على صخرة عالية صائحاً في جموع المسلمين وإحدي أذنيه مقطوعة تتأرجح وتهتز والدماء تنزف منها على وجهه وصدره : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرون ؟ !

يا معشر المسلمين أنا عمار بن ياسر هلمّوا إليّ . ألهبت هذه الكلمات حماس الأبطال ، فحملوا على عدوهم حملة رجل واحد حتى هزموهم شر هزيمة .

وكما كان رسول الله ﷺ يعرف قدر عمار ، كان يعرفه أيضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعندما كان خليفة على المسلمين بعثة واليا على الكوفة وبعث معه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وزيراً ومعلماً وكتب إلى أهلها بذلك كتاباً جاء فيه : « **أما بعد فإني قد بعثت إليكم عماراً أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من نجباء**

أصحاب محمد ﷺ فاقتدوا بهما » وهذه الولاية لم تزده إلا تواضعاً ، فما كان لرجل صحب رسول الله ﷺ أن يتكبر على اخوانه وإن كان والياً ، وإن كانوا مرؤسين . بل إنه ذات يوم وهو أمير الكوفة كان يشترى حاجة أو طعاماً من السوق ، فربطه بحبل وحمله على ظهره وسار به نحو بيته .

فقابله رجل من العامة فقال له : يا أجدع[1] الأذن . يقصد من ذلك تعييره بأذنه التي قطعت في حرب اليمامة فما كان جواب عمار إلا ابتسامة على شفتيه مع قوله : خير أذنيّ سببت ، ولقد أصبت بها يوم اليمامة في سبيل الله .

وتمضي الأيام والسنوات ، وتمضي معها خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويتولى الخلافة بعدهما على بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويحدث الخلاف بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وفي أثناء ذلك تتحقق نبؤة النبي ﷺ باستشهاد عمار بن ياسر رضي الله عنه على يد الفئة الباغية .

* * *

حدث الخلاف بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد كان معاوية رضي الله عنه يطالب بالقَصَاص[2] من قَتَلة عثمان ومعه أهل الشام ، ويظنون أنهم على الحق . أما على بن أبي طالب رضي الله عنه فقد رأى أن يؤخر هذا الأمر ، حتى تستقر الأمور وتهدأ الأوضاع وبعد ذلك يكون القصاص ، ومعه أهل المدينة وغيرها ، ويظنون أنهم على الحق ، وبين هذين الفريقين من أهل الحق فريق ثالث لا يريد للإسلام أن يستمر أو يستقر ، فبذر بذور الفتنة ، وزرع الشقاق بين أهل الحق من الفريقين ، وانقسم المسلمون إلى ثلاث فرق : فرقة رأت أن الحق مع على بن أبي طالب رضي الله عنه فانضمت إليه ، وفرقة رأت أن الحق مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فانضمت إليه ، وفرقة اختارت التوقف ، ولم تنضم لأي الفريقين .

أما عمار بن ياسر رضي الله عنهما فقد رأى أن الحق مع على رضي الله عنه فانضم إليه وشهد معه موقعة الجمل وأبلى فيها بلاءاً حسناً رغم شيخوخته .

---

(1) أجدع الأذن : مقطوع الأذن .

(2) القَصَاص : الثأر وتوقيع العقوبة على الجاني .

وجاء يوم صفّين وهو معركة بين علي ومعاوية ، وكان عمار بجوار علي يقاتل الفئة الباغية رغم أن عمره قد بلغ الثالثة والتسعين .

وينتظر فريق من الصحابة أي الفئتين تقتل عماراً فيظهر المصيب من المخطئ ويصول عمار ويجول في المعركة وهو يقول : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَات [1] هَجَر ـ نخل في هذا المكان المسمى هَجَر ـ لعلمت إنّا على الحق ، وهم على الباطل ، وكان رضي الله عنه لا يقاتل في ناحية ولا واد من الأودية إلا وأصحاب النبي ﷺ يتبعونه كأنه عَلَمٌ [2] لهم بل إنه قال لهاشم بن عتبة بن أبي وقاص : يا هاشم تفر من الجنة ! تقدم فإن الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسنة ، وقد فتحت الجنة أبوابها ، وتزينت الحور العين . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

كان عمار يقاتل ويجول بخاطرة قول الرسول ﷺ له : تقتلك الفئة الباغية . فلا يزيده هذا إلا شجاعة وطلباً للشهادة ، حتى إذا غافله رجلان طعنه أحدهما وأجهز عليه الأخر . فلما قُتل ظهر للناس من هي الفئة الباغية ، بل إن خزيمة بن ثابت الصحابي الجليل رضي الله عنه قال : الآن ظهرت لي الضلالة من الهدى .

ثم انضم إلى جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه كغيره من الذين كانوا ينتظرون مقتل عمار رضي الله عنه وأقبل القاتلان إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه يختصمان فيه كل منهما يدعي قتله أملاً في مكافأة صورتها لهما نفسيهما ، ولا يدريان أن علياً وعماراً يقاتلان وهما يظنان أنهما على حق ، وأن معاوية وعَمْرًا يقاتلان وهما يظنان أنهما على حق وأن المصيب من الفريقين له أجران ، وللمخطئ منهما أجر واحد .

اختصم الرجلان أمام عمرو بن العاص رضي الله عنه فبكى وهو يقول : والله إن يختصمان إلا في النار . والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وصعدت روح البطل إلى بارئها لتنعم بالجنة التي اشتاقت إليه ، وتهيأت لاستقباله الحور العين جزاء ما لاقى وصبر وكافح وجاهد محتسباً الأجر والثواب عند الله تعالى .

---

(1) سَعَفَات : أوراق جريد النخيل .

(2) عَلَم : علامة وأثر ودليل .

*** من فضائل عمار بن ياسر رضي الله عنهما**

(1) عن عائشة -رضي الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ : « **ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما** » رواه الترمذي وصححه الألباني .

(2) قال رسول الله ﷺ : « **لقد ملئ عمار إيمانًا من قدمه إلى مشاشه** » رواه النسائي وصححه الألباني .

يعني ملأه الإيمان من قمه رأسه إلى أسفل قدميه حتى وصل إلى أصول عظامه .

(3) عندما مات حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أوصي قائلاً : عليكم بابن سمية ، فإنه لن يفارق الحق حتى يموت .

* * *

(5) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

هو أحد العبادلة والمكثرين رواية للحديث ، وهو حَبرْ[1] الأمة ، وترجمان القرآن . أتاه الله تعالى حكْمة الشيوخ ، وفقه العلماء في حداثة سنه ، ولما لا وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بأن يؤتيه الله الحكمة ، ويفقهه في الدين ، ويعلمه التأويل ، وببركة هذا الدعاء كان ملجأ العلماء ، ومقصد السائلين ، وبغية الطالبين ، ومحج المسترشدين .

إنه ابن عم النبي ﷺ ، وكفي به من شرف . ولقد حاز من صفات المجد والشرف غير الإنتساب للبيت النبوي صفات العلم والتقى والورع والصحبة الشريفة هيا نقلب الصفحات ونقرب الصورة أكثر فأكثر ، ليتضح التفصيل بعد الإجمال .

***

لم تفلح محاولات مشركي مكة في النيل من رسول الله ﷺ ودعوته ، ولا من صحابته ، فهم يزدادون يوماً بعد يوما ، والدعوة تزداد انتشاراً بعد انتشار ، وأخيراً قرر المشركون أن يحصروا المسلمين في شعبْ[2] أبي طالب ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم حتى يهلكوا جوعاً ، أو يسلَموهم محمداً ﷺ ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، ولكن الله تعالى فرج هذه الكربة عن المسلمين بعد ثلاث سنوات .

وفي أثناء هذا الحصار وُلد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قبل الهجرة بثلاث سنوات ، فأتى به إلى النبي ﷺ فحنكة بريقه ـ أي دلك أعلى فمه بريقه ـ وكان أول ما دخل جوفه ريق النبي ﷺ ، ومعه دخلت البركة والعلم والحكمة .

وما أن دخل سن التمييز حتى كان مرافقاً للنبي ﷺ ، وخادماً له ، يعد له ماء وضوئه ، ويصاحبه في سفره ، ويصلي معه إذا ما صلى ، ونال بركة دعاء النبي ﷺ

---

(1) الحبر : العالم .

(2) الشِّعب : انفراج بين جبلين .

له بأن يزيده الله علماً وفهماً ، فقد أعد له ماء وضوئه ذات يوم دون أن يطلب منه ، فلما سأل ﷺ : من وضع هذا ؟ قيل ، ابن عباس . فقال : « **اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل** » .

ومرة أخرى صلى خلف النبي ﷺ قيام الليل فأخذ بيده وجعله موازيًا له في الصف ، فلما كبَّر الرسول ﷺ ، وأقبل على صلاته تأخر ابن عباس رضي الله عنه إلى الوراء قليلاً . فلما فرغ النبي ﷺ من صلاته ، سأله : ما شأنك ، وما منعك أن تكون بازائي يا عبد الله ؟ !

فقال عبد الله رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك أو يوازيك . فدعا له النبي ﷺ : « **اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب** » وكثيراً ما كان يوصيه ﷺ بما ينفعه في دنياه وآخرته ، فقد أوصاه ذات يوم وقال له : «**يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف** » .

وهكذا ظل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ملازمًا لابن عمه رسول الله ﷺ حتى توفاه الله تعالى وتولى الخلافة من بعده أبوبكر الصديق رضي الله عنه .

* * *

حرص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على طلب العلم والمعرفة ، مهما كلفه ذلك من مشاق ، وذلك أنه بعد وفاة النبي ﷺ قال لفتى من الأنصار : هلم نطلب العلم ، ونسأل عنه أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير . فقال له الفتى : واعجبا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك ؟ ! وبهذا كانت نظرة فتى الأنصار قاصرة والطموح لديه منعدم ، أما ابن عباس رضي الله عنه فحب العلم تملّك منه ، والأخذ بالأسباب دفعه إلى أن يسأل ويسأل ، حتى أنه كان يبلغه الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ عند رجل فيأتي بابه وقت القيلولة [1] ، ويجلس عنده ،

---

(1) وقت القيلولة : منتصف النهار .

والريح تضرب وجهه بترابها ورمالها ، وما يصرفه ذلك حتى يخرج الرجل فيراه فيقول له : يا ابن عم رسول الله ، ما جاء بك ؟ هلا أرسلت إليّ فآتيك . فيجيبه : لا أنا أحق أن آتيك فاسألك عن الحديث والعلم .

والعجيب أن فتى الأنصار عاش حتى رأى الناس يجتمعون حول ابن عباس رضي الله عنه يتعلمون منه ، فقال وهو يشير إليه : هذا الفتى كان أعقل مني .

وبلغ من علم ابن عباس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستشيره في المعضلات [1] مما دعا بعض الصحابة إلى عتاب عمر رضي الله عنه ، فقال لهم : إنه فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقُول .

ثم دعاه ودعاهم يوماً ليريهم علمه وفضله ، وسألهم عن تفسير سورة النصر ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر 1] فقال بعضهم : أمر الله نبيه إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجا أن يحمده ويستغفره .

فوجه عمر رضي الله عنه خطابه إلى ابن عباس رضي الله عنه : يا ابن عباس ، تكلم ، فقال : أعْلَمَ الله رسوله ﷺ متى يموت ، أي فهي علامة موتك ، فاستعد ، فسبح بحمد ربك واستغفره . ومع سعة علمه ، وشرف نسبه ، وسمو مكانته كان رضي الله عنه متواضعاً يعرف لأصحاب رسول الله ﷺ قدرهم ومكانتهم ، فقد رأى ذات يوم زيد بن ثابت رضي الله عنه يريد أن يركب دابته ، فأسرع إليه وأمسك بركابها [2] .

فقال زيد رضي الله عنه : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس رضي الله عنه : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فتناول زيد يده فقبلها ، وقال له : وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

* * *

لم يكن ابن عباس رضي الله عنه عالمًا بأمور الدين والفقه فقط ، بل بحديث رسول الله ﷺ والشعر العربي وآدابه ، والقضاء وأحكامه ، وأيام العرب وأخبارها ،

---

(1) المعضلات : جمع معضلة وهي المسائل الصعبة .

(2) الرّكاب : السرج الذي توضع فيه الرجل .

والقبائل وأنسابها ، وما سأله سائل يوما عن شيء إلا وأجابه بما علمه الله إياه ، وفتح به عليه .

يروى أحد التابعين فيقول : لقد رأيت من ابن عباس رضي الله عنهما مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان فخراً لها . لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ، ولا أن يذهب من شدة الزحام يقول الرجل : فدخلت عليه فأخبرته بالناس ، ومكانهم على بابه .

فقال لي : ضع لي وضوءاً ، ثم توضأ فجلس وقال : أخرج للناس ، وقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه والمراد منه فليدخل . فخرج الرجل وأخبرهم ، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر . وخرج الناس فقال لصاحبه : أخرج وقل للناس : من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل .

فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبره به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر . وخرج الناس . فقال لصاحبه : اخرج وقل من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . وخرج الناس . فقال لصاحبه : أخرج وقل من أراد أن يسأل عن الفرائض [1] وما اشبهها فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . وخرج الناس .

فقال له : اخرج وقل من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله .

وليس لنا إلا القول بأنه علم غزير ، وثقافة متنوعة ، ببركة دعاء النبي ﷺ له يوم أن دعا له بالفقه في الدين ، وتعليم التأويل .

---

(1) علم الفرائض : علم المواريث .

ومع العلم الغزير كانت لديه الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، والحوار الذي يقود إلى الصواب ، ويأخذ بأيدي التائهين والمتخبطين إلى طريق الحق ، وقد حدث ذلك مع خصوم الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه .

* * *

تولى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحدث ما حدث بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وترتب على ذلك خروج طائفة عن طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سموا بالخوارج ، فقاتلهم وقاتلوه ولما كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه حريصين على دماء المسلمين طلب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من أمير المؤمنين أن يأتى القوم ويحاورهم ، وقال له : ائذن لي يا أمير المؤمنين أن آتي القوم وأكلمهم . فقال على رضي الله عنه : إني أخاف عليك منهم . فقال : لا تخف .

وذهب إليهم ابن عباس رضي الله عنه محاوراً ، فوجد أنهم يأخذون على الإمام على رضي الله عنه ثلاثة أمور .

أولها أنه حكَّم الرجال في دين الله بأن قبل أن يحكم بينه وبين معاوية كلاً من أبي موسي الأشعري رضي الله عنه ، وعمرو بن العاص رضي الله عنه ، والله يقول : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام : 57]

وثانيهما أنه قاتل عائشة ومعاوية ، ولم يأخذ غنائم ولا سبايا ، فإن كانوا كفاراً فقد حلت له أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماؤهم .

وثالثها أنه محا عن نفسه صفة أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

وبعد أن استمع ابن عباس رضي الله عنه لأقوالهم ومآخذهم ، استعان بالله وحمده ، وقال لهم : أرأيتم إن اسمعتكم من كتاب الله تعالى ، وحديث رسوله ﷺ مما لا تنكرونه ، وفيه تفنيد [1] أرائكم ، وبطلان حججكم أفترجعون عما أنتم فيه ؟

---

(1) تفنيد : بطلان .

فقالوا: نعم . قال : أما قولكم أنه حكّم الرجال في دين الله ، فالله تعالى يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة : 95] أفحكم الرجال في حقن دماء المسلمين أم حكمهم في أرنب ثمنه ربع درهم ؟!

قالوا : بل في حقن دماء المسلمين . وسقط المأخذ الأول .

ثم قال : أما قولكم إن عليا قاتل ولم يَسْبِ [1] ولم يغنم ، أفكنتم تريدونه أن يسبي أمكم عائشة ؟ فإن قلتم نعم كفرتم ، وإن قلتم أنها ليست بأمكم كفرتم أيضاً ، فالله تعالى يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] فلم يجد القوم أمامهم إلا أن يقولوا : خرجنا من هذه أيضاً . .

وسقط المأخذ الثاني . . فاستأنف ابن عباس رضي الله عنه حواره ومناظرته أما قولكم إن عليًا قد محا عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ وقت كتابة صلح الحديبية ـ وكان الكاتب عليًا ـ كتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال مبعوث قريش سهيل بن عمرو ـ وكان يومئذ مشركاً ـ لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فنزل رسول الله ﷺ عند طلبهم ، وكتب محمد بن عبد الله وبهذا سقط المأخذ الثالث ، والمآخذ كلها بفضل الله تعالى .

ثم بفضل المحاورة الرائعة والمناظرة القوية التي هوت بأهواء أهل الزيغ [2] .

وكان من ثمرة هذه المحاورة أن عاد أكثرهم إلى الحق والصواب .

عاش عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يزكي عن علمه بنشره بين الناس ، ويفسر كلام الله تعالى تفسيراً يستولي على القلوب والأذهان ، حتى أن بعضهم قال : لقد فسر ابن عباس سورة النور لو سمعت هذا التفسير الروم وفارس لأسلمت ، وبجوار هذا العلم كانت العبادة الدائمة ، والمشي في حاجة اخوانه ، حتى لو اضطره ذلك إلى الخروج من معتكفه ، فقد كان معتكفاً ذات يوم في مسجد

(1) السبايا : النساء الأسيرات .

(2) الزيغ : الميل عن الحق .

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل وطلب منه أن يأتي معه لرجل آخر له عليه دين . فخرج ابن عباس رضي الله عنه من المسجد فقال له الرجل : أنسيت ما كنت فيه من الإعتكاف ؟! قال رضي الله عنه : لا ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من مشى في حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق كل خندق أبعد ما بين الخافقين** » [1] .

* * *

مضى عصر الخلفاء الراشدين وجاء عصر الدولة الأموية ، وحدثت المعارك بين الحسين بن علي رضي الله عنهما ويزيد بن معاوية ولما أراد الحسين الخروج إلى العراق نصحه ابن عباس رضي الله عنه بعدم الخروج ، خوفاً عليه من القتل ، وتعلق به ، واستماته [2] للحيولة دون ذلك .

ولكن الحسين رضي الله عنه رفض النصيحة وذهب إلى العراق وخذله اتباعه فاستشهد في كربلاء يوم عاشوراء في السنة الحادية والستين بعد الهجرة ، فحزن ابن عباس رضي الله عنه عليه حزناً شديداً . .

ومضت السنوات بعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما حتى أوصلته إلى سن الحادية والسبعين ، وفيها لبى نداء ربه في السنة الثامنة والستين للهجرة بعد أن ملأ الأرض علمًا وفقهاً وحكمة وتفسيراً وحديثاً . كانت وفاته في مدينة الطائف وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً .

دفن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، وأثناء دفنه كان صوت القرآن الكريم يعلو ويعلو وهو يردد . . ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

[الفجر : 27ـ30] .

---

(1) الخافقين : المشرق والمغرب .

(2) استماته : ألح عليه باحرار شديد .

*** من فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما**

(1) عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ضمني النبي ﷺ إلى صدره ، وقال : « **اللهم علمه الحكمة وفي رواية اللهم علمه الكتاب** » رواه البخاري .

(2) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وضعت وضوءاً [1] للنبي ﷺ فلما خرج قال : من وضع هذا ؟ قيل ابن عباس . فقال ﷺ : « **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** » رواه الإمام أحمد وصححه الألباني .

(3) سئل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن شيء ، فقال : سل ابن عباس فإنه اعلم من بقي بما أنزله الله على محمد ﷺ .

* * *

(1) وَضُوء : ماء للوضوء .

(6) عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

إنه صائم النهار ، قائم الليل ، أسلم مبكراً ، وهو أحد العبادلة والمكثرين رواية للحديث ، ومن أهل العلم المخلصين ، الزاهد العابد ، المبتعد عن متع الدنيا ومناصبها . المنفق بسخاء ، والمعطي بكرم .

إنه الرجل الذي وصفه الرسول ﷺ بالصلاح ، ونصحة بقيام الليل .

إنه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ابن أمير المؤمنين ، وفاروق الأمة كيف كانت حياته ؟

وما هي مواقفه مع الرسول ﷺ ؟

وكيف كان اقتداؤه بسنة النبي ﷺ ؟

وكيف عاش ، وكيف مات ؟؟؟

هذا ما سنتعرف إليه من خلال تقليب هذه الصفحات .

***

الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي ، ولد قبل البعثة بسنة ، وأسلم صغيراً وهو لم يبلغ الحلم بعد ، وقضى طفولته المبكرة بمكة المكرمة ، وشهد ما كان يحدث للمستضعفين .

تبدأ حياته مع الإسلام بعد هجرته إلى المدينة المنورة فقد هاجر إليها قبل أبيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وعندما تراءت الفئتان [1] والتقي الجمعان ، جمع التوحيد ، وجمع الشرك في معركة بدر الفاصلة كان ابن عمر ما يزال صغيراً ، ولكن حب الجهاد ملأ قلبه ، فدفعه إلى الذهاب إلى النبي ﷺ طالبًا منه المشاركة ، فنظر إليه ﷺ وابتسم ورده لأنه كان صغيراً وبعد سنة كانت غزوة أحد ، ومرة أخرى ذهب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ليشارك المسلمين جهادهم ، فرده الرسول ﷺ مرة ثانية مع

---

(1) تراءت الفئتان : تقابل الفريقان .

غيره كأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم جميعاً .

* * *

وأول مشهد له مع رسول الله ﷺ غزوة الخندق ، فقد شارك فيها بالحفر والحراسة حتى أرسل الله تعالى على المشركين ريحاً وجنوداً لا تُرى ، وردهم بغيظهم دون أن ينالوا خيراً ولا نصراً ، وشهد بعد ذلك غزوة مؤتة ومعركة اليرموك وفتح مصر وافريقية ، ولم يرفع سيفه إلا جهاداً في سبيل الله ، ورداً للعدوان ، ونشراً لرسالة الإسلام . .

* * *

لم يكن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمتلك قلبًا شجاعاً فقط ، إنما حباه[1] الله بعقل واعٍ ، وذهن صاف ، وذكاء عظيم ، ويدل على ذلك أنه كان ذات يوم جالساً مع الرسول ﷺ وسط صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم يتعلم منه ، ويسمع حديثه ، ويأخذ عنه ، فسأل الرسول ﷺ : « **إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟**» .

فأخذ كل من الصحابة يذكر شجرة من أشجار الصحراء ، ووقع في نفس ابن عمر رضي الله عنه أنها النخلة ولكنه لصغر سنه استحيا أن يجيب ، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله : « **هي النخلة**» .

بعد أن انصرف القوم أخبر عبد الله أباه قائلاً : يا أبت ، لقد وقع في نفسي أن الشجرة هي النخلة ، ولكني استحييت أن أجيب ، فقال عمر رضي الله عنه : لئن كنت قلتها لكان ذلك أحب إليّ من حمر النعم يرجو بذلك دعاء النبي ﷺ لولده بنجابة العقل ، ورجاحة الفكر ، وسعة العلم .

* * *

عاش عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ يراقب أفعاله ، ويحفظ أقواله ، ويقتدي به ، ويفعل مثلما يفعل بدقة متناهية ، حتى أن السيدة

---

(1) حباه : اختصه .

عائشة رضي الله عنها قالت : « **ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منازله كما كان يتبعه ابن عمر** » لقد كان يتحرى آثار النبي ﷺ ويتبعها ، فعندما يراه يصلي في مكان ما يصلي فيه وحيثما يسير في طريق يسير فيه ، رجاء أن توافق خطواته خطوات النبي ﷺ، وعندما علم أن رسول الله ﷺ نزل تحت شجرة يستظل بها كان عبد الله رضي الله عنه ينزل عندها ، ويرويها بالماء خشية أن تيبس .

بل إنه عندما فتح الرسول ﷺ مكة . ودخل الكعبة ومعه بلال رضي الله عنه ، وصلى فيها ، وبعد خروجه تخلف بلال ، فدخل عبد الله على بلال وسأله : أين صلى رسول الله ﷺ ؟ ولم يسأله كم صلى .

وفي لباسه كان يحاكي [1] النبي ﷺ ، فإذا لبس عمامته أرخاها وأرسلها بين كتفيه كما كان يفعل النبي ﷺ .

وذات يوم مر بمكان ، فانحرف قليلاً ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت النبي ﷺ فعل هذا ففعلت .

وبلغ به الأمر أنه في موسم الحج ذهب إلى مكان ما ، وأناخ [2] راحلته ، وظن أصحابه أنه يريد الصلاة . فقال غلامه : إنه لا يريد الصلاة ، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ قضى حاجته في هذا المكان ، فهو يحب أن يقضي حاجته فيه .

وهكذا اقتداء واتباع كاملين لأثار الرسول ﷺ دون تفكير ، بل دقة متناهية ومحاكاة تامة .

وعندما كان يرى الرسول ﷺ يفسر رؤى [3] أصحابه ، كان يتمنى أن يرى رؤية حتى يفسرها له الرسول ﷺ يحكي ذلك عن نفسه قائلاً : كان من رأى رؤيا في حياة النبي ﷺ قصها عليه ، فتمنيت أن أرى رؤيا ، وكنت غلاماً شاباً عزباً أنام في المسجد فرأيت في المنام كأن ملكين أتياني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار .

---

(1) يحاكي : يقلد .

(2) أناخ راحلته : جعلها تبرك .

(3) رؤى : جمع رؤيا ، وهي ما يُري في النام .

فلقيني ملك آخر ، فقال لي : لم ترع [1] . فقصصتها على حفصة ـ أخته وزوج النبي ﷺ ـ فقصتها حفصة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ فقال : نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل » .

فمن يومها كان ابن عمر رضي الله عنه لا ينام من الليل إلا قليلاً ، وظل هكذا طوال حياته إلى أن مات ، فقد كان بجوار فراشه وعاء لماء الوضوء ، يتوضأ منه ثم يصلي ، ثم يغفو [2] اغفاءة خفيفة ، ثم يقوم فيتوضأ ثم يصلي ثم يرجع إلى فراشه فيغفوا اغفاءة قصيره خفيفة ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، يفعل ذلك في الليل أربع أو خمس مرات .

ولهذا استحق رضي الله عنه وصف الرسول ﷺ له بالرجل الصالح . فقد رأى في منامه ذات يوم كأن بيده قطعة استبرق [3] ، ولا يشير بها إلى موضع من الجنة إلا طارت به وأخذته إلى ذلك المكان . فقص رؤياه على أخته حفصة رضي الله عنها التي قصتها بدورها على زوجها ﷺ ، فقال لها : « إن أخاك رجل صالح » أو « إن عبد الله رجل صالح » .

***

لم تكن ملازمة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما للنبي ﷺ للاقتداء به فقط ، إنما كانت لنقل سنته إلى المسلمين ، وسماع حديثه وتبليغه للناس ، ولذلك فقد كان من المكثرين رواية للحديث ، ومن المطبقين والمنفذين لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

وقد كان رضي الله عنه جواداً عطوفًا على الفقراء والمساكين والسائلين ، لا يرد سائلاً أيا كان ، حتى أن المجذوم [4] ليأكل معه في طبقه ، وكان إذا وضع طعامه دعا من حوله ومن يقابله من اليتامى والمساكين حتى أضر ذلك بجسمه من قلة الطعام ، حتى وصل الأمر بزوجات جيرانه أن يذهبن إلى زوجته ، ويعاتبنها قائلين : أما تلطفين بهذا الشيخ ؟!

---

(1) لم ترع : لا تخف .
(2) يغفو : ينام قليلا . أو ينام نومًا خفيفاً .
(3) الاستبرق : نوع من الحرير السميك .
(4) المجذوم : الجذام مرض يصيب الأعضاء ويسبب تأكلها وتساقطها .

فقالت : فما أصنع به ، ما أصنع له طعاماً إلا دعا عليه من يأكله معه ويشاركه فيه . فما حيلتي والمساكين في طريقه يمر بهم إذا خرج من المسجد ؟

فقلن لها : اصنعي طعاماً لهم ، وأطعميهم إياه، وقولي لهم لا تجلسوا بطريقه .

وفعلت الزوجة ، ثم جاء عبد الله رضي الله عنه إلى بيته ، ووُضع أمامه الطعام . فقام وطلب المساكين ، فلم يأته أحد .

فقال لزوجته : أردتم أن لا أتعشى الليلة . ولم يتعش تلك الليلة .

حتى وهو مريض كان يؤثر غيره على نفسه بالشيء وإن كان يشتهيه ، فقد مرض ذات يوم فاشتهى عنقود عنب ، فاشتراه له مولاه نافع بدرهم ، ثم أتاه مسكين، فقال ابن عمر رضي الله عنه : اعطوه العنب . فأعطوه .

فذهب أحد أصحابه فاشترى العنب من المسكين بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر رضي الله عنه ، ولما هم بتناوله جاءه السائل ثانية . فقال ابن عمر رضي الله عنه : أعطوه إياه فأعطوه . فذهب إنسان آخر فاشتراه من السائل بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر رضي الله عنه ، وأراد السائل أن يعود مرة أخرى ، فنهره أحدهم قائلاً : ويحك أما تستحي . ولو علم بذلك ابن عمر ما ذاقه .

وأما عن انفاقه وكرمه ، فقد أتته يومًا وهو في مجلسه اثنان وعشرون ألف دينار، فلم يقم من مجلسه حتى فرقها ووزعها ، وأرسل له معاوية رضي الله عنه يوماً مائة ألف دينار ، فما مر عام إلا وكان قد أنفقها جميعاً على المحتاجين. ومرة أخرى أتته عشرة ألاف درهم ، فأنفقها كلها ، ثم جاء إلى السوق يشتري علفًا لراحلته بالدين .

ورغم غناه وشرفه إلا أنه كان زاهداً في الدنيا راغبًا عنها، حتى وإن أتته طائعة وهو القائل « لا يصيب عبد شيئاً من الدنيا إلا نقص من درجاته عند الله عز وجل ، وإن كان كريماً » .

بل إن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه دعاه ذات يوم وطلب منه أن يقبل منه منصب القضاء ، وقال له : اذهب فاقض بين الناس .

فقال ابن عمر : أو تعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، فقد عزمت أن تذهب فتقضي فقال ابن عمر : لا تعجل يا أمير المؤمنين ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ**» .

فقال عثمان رضي الله عنه : نعم ، وأنا أعلم ذلك . قال ابن عمر رضي الله عنه : فإني أعوذ بالله أن أكون قاضياً . قال : وما يمنعك وقد كان أبوك يقضي ؟

قال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من كان قاضياً ، فقضي بجهل كان من أهل النار، ومن كان قاضياً عالماً فقضي بحق ـ أو بعدل ـ سأل التقلّب كفافاً** » فما أرجو بعد هذا . فاعفني يا أمير المؤمنين . فأعفاه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

بل إن منصب الإمارة جاءه طواعية ، فرفضه خوفاً من إراقة دماء المسلمين ، جاءه ذات يوم رجلان أيام فتنة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، فقالا له : إن الناس قد ضاعوا ، وأنت ابن عمر الفاروق أمير المؤمنين ، وصاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج وتقيم أمر الناس فإنهم قد رضوا بك كلهم ؟

فقال : يمنعني أن الله حرّم دم أخي . أرأيتم إن خالف رجل بالمشرق ؟ فقالوا : إن خالف رجل قتل ، ولكن ما قتل رجل في صلاح الأمة ؟!

فقال : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بقتل رجل من المسلمين .

وهكذا كان رضي الله عنه يعتزل الفتن ، وعندما وقعت الفتنة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لم ينضم لأي الفريقين ، وكان يقول : من قال حي على الصلاة أجبته ، ومن قال على الفلاح أجبته ، ومن قال على قتل أخيك المسلم ، وأخذ ماله . قلت : لا .

***

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ينفق في سبيل الله ما يحب ، طلباً للبر والتقوى ، عاملاً بقول الله تعالى : ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : 92] .

فقد أعجبته ذات يوم جارية له . فلما اشتد بها عجبه أعتقها لوجه الله تعالى ، وزوجها أحد مواليه .

وقد عرف رقيقه أنه إذا اشتد عجبه بشيء قربه لله عز وجل ، ولذلك كان بعضهم يلزم المسجد للصلاة والعبادة فإذا رأه سيده ابن عمر رضي الله عنه على هذه الحال الحسنة اعتقه لوجه الله تعالى .

فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن ، والله ما بهم من شيء إلا أنهم يخدعوك فيجيبهم رضي الله عنه بقوله : من خدعنا بالله انخدعنا له . . .

وفقد ذات يوم ناقة له ، فاحتسبها عند الله ، فوجدها أحدهم في السوق فذهب إليه يقول : إن ناقتك الفلانية في السوق الآن تباع ، قال : إني كنت قد احتسبتها فلم أطلبها .

ومع هذا كان عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يحمل في قلبه حباً لإخوانه المسلمين ، يكثر السلام عليهم مطبقا قول الرسول ﷺ : « **أفشوا السلام بينكم** » فكان يذهب إلى الأسواق لا للبيع أو الشراء إنما للسلام فقط إنه قلب تربى على حب الناس جميعاً ، قلب تعلق بكلام الله تعالى وبكلام رسوله ﷺ قلب تربى على التفكر في الدنيا واكتشاف حقيقتها التافهة الحقيرة ، والنظر إلى الآخرة والعمل لها ، وما كان لقلب مثل هذا أن يحمل إلا الحب والخير والنصح والإرشاد والمواعظ النافعة ، ومراقبة الله تعالى في كل الشؤون والأمور والأحوال .

يدل على ذلك أنه رضي الله عنه خرج ذات يوم في بعض نواحي المدينة مع بعض أصحابه ، فلما جاء وقت الطعام ووضع أمامهم ، مر بهم راعي غنم فسلم عليهم ، فدعاه ابن عمر إلى الطعام قائلاً : هلم يا راعي فأصب من هذه السفرة [1] . فقال الراعي : إني صائم فقال له : أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد وأنت في هذه الحال ترعى هذه الغنم ؟!

فأجابه : والله إني اجعل أيامي هذه ليوم أشد حراً من ذلك ، وهو يوم الحساب . فأراد ابن عمر رضي الله عنه أن يختبر ورع هذا الراعي .

---

(1) السفرة : المائدة وما عليها من طعام . أو طعام يصنع للمسافر .

فسأله : هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ، ونعطيك من لحمها ما تفطر عليه ؟

فقال الراعي : إنها ليست لي . إنها غنم سيدي الذي أعمل عنده ، وإني مؤتمن فقال له ابن عمر : فما يفعل سيدك إذا فقدها ؟ هل سيكتشف فقدها ؟

فولي الراعي وهو يرتجف رافعاً رأسه إلى السماء ويشير بأصبعه ، وهو يقول : فأين الله ؟! فما كان من رد فعل ابن عمر رضي الله عنه إلا ترديده : قال الراعي ، أين الله ، قال الراعي أين الله ؟

حقاً فأين الله ؟ أين العليم إذا جهل صاحب الغنم ؟! وأين الرقيب إذا غاب صاحب الغنم ؟

ثم قدم ابن عمر رضي الله عنه المدينة وسأل عن سيد هذا الراعي ، فاشتراه منه واشترى منه الغنم ، فاعتق الراعي لوجه الله تعالى ، ووهب له الغنم .

***

عاش عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عالماً فقيهاً محدثاً ، ظل يفتي الناس ستين عاماً ومع ذلك فقد كان شديد الاحتياط في الفتوى ، لا يجيب إلا على ما يعلمه ، فقد جاءه ذات يوم رجل يستفتيه في مسأله ما ، فأجابه بأنه لا علم له بما يسأل عنه ، فولى الرجل مدبراً وابن عمر يقول فرحاً : سئل ابن عمر عما لا يعلم فقال لا أعلم . ومرة أخرى سئل عن شيء .

فقال : لا أدري ، ثم قال : أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً إلى جهنم ، تقولون : أفتانا بهذا ابن عمر ، ولهذا فقد كان بعيداً عن منصب القضاء كما مر بنا .

عاصر ابن عمر رضي الله عنه عصر الخلفاء الراشدين ، وابتعد عن الفتنة التي حدثت بين علي ومعاوية خوفاً من قتل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولكنه بعد ذلك ندم على ترك قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا

الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : 9] .

وأدرك ابن عمر رضي الله عنه عهد بنى أمية بترفه ورخائه ولكن لم تمل به الدنيا كما مالت بغيره ، وبعد عمره الطويل زمناً ، الكثير نفعاً ، الفياض علمًا جاءه أمر الله تعالى ، وكان ذلك في عهد عبد الملك بن مروان سنة أربع وسبعين للهجرة .

***

أقبل موسم الحج ، وخرج الحُجاج قاصدين مكة المكرمة ، وأوصى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الحَجَّاج بن يوسف الثقفي واليه على العراق أن يقتدي بابن عمر فدهش الحجاج أيقتدي برجل من العامة ، وهو الأمير والوالي ، وبمن ؟ بابن عمر الذي أحرجه ذات يوم أمام جموع المصلين عندما خطب وأطال خطبته وأخّر الصلاة فقال له ابن عمر رضي الله عنه : إن الشمس لا تنتظرك فقال الحجاج : لقد هممت أن أضرب الذي فيه عيناك . فرد ابن عمر رضي الله عنه : إن تفعل فإنك سيفه مُسلّط . هكذا أمام جموع المصلين فهو تربية رسول الله ﷺ الذي لا يخش في الله لومه لائم .

لم يناقش الحَجَّاج الأمر مع عبد الملك بن مروان ، ولكنه أسر في نفسه شيء ما .

***

بدأت مناسك الحج ، وكان المسلمون ينظرون إلى ابن عمر رضي الله عنه ويقتدون به ، وهم في حقيقة الأمر يقتدون برسول الله ﷺ ، وما ابن عمر رضي الله عنه إلا ناقل لسنته ، بل صورة دقيقة لأعماله في الحج .

وبطبيعة الموقف كان ابن عمر رضي الله عنه يتقدم الحَجّاج بن يوسف في الطواف والسعي وغيرهما من مناسك ، وكان ذلك يشق على الحجاج ، فأمر رجلاً معه حربه مسمومة أن يلصق بابن عمر عند إزدحام الناس ، وأطاع الرجل الأمر ، فوضع الحربة على ظهر قدمه فأحدثت فيه خدشًا بسيطًا فمرض منه أيامًا ، فأتاه الحجاج يعوده ، فقال له : من فعل بك ذلك ؟

فقال ابن عمر رضي الله عنه : وما تصنع لو علمت ؟

قال الحجاج : قتلني الله إن لم أقتله ! فقال ابن عمر رضي الله عنه : ما أراك فاعلاً ! أنت الذي أمرت الذي نخسني[1] بالحربة .

وما هي إلا أيام ومات عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

مات الرجل الذي ظل يعمل بوصية الرسول ﷺ له يوم أن أوصاه : « **يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك في أهل القبور** » .

« **يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، إنما هي حسنات وسيئات جزاء بجزاء ، وقصاص بقصاص ، ولا تتبرأ من ولدك في الدنيا فيتبرأ الله منك في الآخرة فيفضحك على رؤوس الأشهاد ، ومن جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة** » .

رحم الله الرجل الصالح أبا عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، كما وصفه الرسول ﷺ .

*** من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما**

(1) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت في المنام كأن في يدي قطعة استبرق ، وليس مكان أريد من الجنة إلا طارت إليه . قال فقصصته على حفصة ، فقصّته حفصة على النبي ﷺ . فقال : « **أري عبد الله رجلاً صالحاً** » رواه البخاري ومسلم .

(2) كان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : ما منا إلا مالت به الدنيا وما بها ما خلا عمر وابنه عبد الله .

(3) سئل نافع مولاه : ما كان ابن عمر يصنع في منزله ؟ قال : الوضوء لكل صلاة ، والمصحف فيما بينهما .

* * *

---

(1) نخس : طعن .

(7) عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

إنه العالم العامل بعلمه ، قائم الليل ، وصائم النهار ، وهو أحد العبادلة ، ومن المكثرين رواية للحديث ، الذي كان يكتب عن النبي ﷺ ما يقوله في الرضا والغضب بعد استأذانه في ذلك .

إنه العابد الزاهد والحَبْر العالم الفاضل الذي قرأ كتب السابقين . أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الصحابي الجليل بن الصحابي الجليل الذي كان يختم القرآن مرة كل أسبوع ، ويفطر يوماً ويصوم يومًا إلى أن مات كما أمره رسول الله ﷺ .

ما هي قصة حياته ، وما هي مواقفه مع الرسول ﷺ ، ومع الصحابة رضوان الله عليهم ؟ كيف كانت عبادته وعلمه ؟

هذا ما سنتعرف عليه إن شاء الله من خلال قراءة الصفحات التالية

***

ولد عبد الله بن عمرو بن العاص في بيت شريف من بيوت مكة المكرمة ، فجده هو العاصي بن وائل السهمي ، أحد سادة قريش ، وأحد زعمائها ، وأبوه هو عمرو ابن العاص رضي الله عنه داهية العرب ، وسفيرها إلى النجاشي ، الذي تزوج مبكراً وأنجب عبد الله مبكراً ، ولذلك فقد كان الفارق العمري بينهما اثنتا عشرة سنة ، ويبدو أن سبب هذا الزواج المبكر يعود إلى رخاء هذه الأسرة وشرفها ، أو أنه عادة هذه الأسر في ذلك الزمان .

شب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما طويلاً ، أحمر الوجه . رزقه الله بعقل نابه ، وفكر ثاقب ، يدل على ذلك أنه أسلم قبل أبيه مبكراً ، وكذلك تعلم عبد الله ابن عمرو القراءة والكتابة في عصر قل فيه الكتبة وانحصروا في فئة من سادة القوم ، مما أتاح له ذلك الإطلاع على كتب السابقين والتدوين عن رسول الله ﷺ فيما يقوله من أحاديث ، وذلك بعد استأذانه بقوله : يا رسول الله ، اكتب ما أسمع في الرضا

والغضب ؟ قال ﷺ : « **نعم ، فإني لا أقول إلا حقاً** »وهوالأمر الذي جعله من أكثر رواة الأحاديث .

يخبر بذلك أبوهريرة رضي الله عنه ، فيقول : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب .

نشأ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في طاعة الله تعالى ، فقد كان كثير الصيام والقيام وقراءة القرآن ، الأمر الذي دفع والده أن يخبر رسول الله ﷺ بصنيعه . .

***

زوج عمرو ابنه عبد الله فتاة ذات حسب ونسب ، وكان يذهب إلى زوجه ابنه ويسألها عن حالها ، وحال زوجها معها . فكانت تذكره بالخير ، وتخبر أنه دائم القيام ليلاً ، والصيام نهاراً ، تذكر الزوجة ذلك بصيغة الشكوى ؛ لأن لها حقوقاً تريدها ، ففهم الأب وانطلق من فوره إلى رسول الله ﷺ وذكر له شكوى زوجه ابنه . فقال له ﷺ : القني به .

فلما قابل النبي ﷺ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، سأله : كيف تصوم ؟

قال : كل يوم . قال : وكيف تختم ؟ قال : كل ليلة . فقال النبي ﷺ : « **صم في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر** »، فقال عبدالله : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة .

فقال : أطيق أكثر من ذلك . قال : افطر يومين وصم يوماً . فقال : أطيق أكثر من ذلك . قال : صم أفضل الصوم ، صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليال مرة .

وهكذا وضع الرسول ﷺ له منهج العبادة ، صيام يوم ، وإفطار يوم ، وقراءة القرآن مرة كل أسبوع ، وليس هناك أفضل من ذلك ، لأن لبدنه عليه حقاً ، ولزوجه عليه حقاً ، ولزائره عليه حقاً .

وظل عبد الله محافظاً على هذا المنهج المعتدل حتى بعد ما كبر ، وضعفت قوته

بل إنه كان إذا أراد أن يتقوى على الصيام أفطر أياماً وأحصاها ، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ .

***

كان عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما حريصاً على فعل الطاعات ، والسبق إلى الخيرات ، ولذلك كان ملازمًا لرسول الله ﷺ منذ صباه ، يسمع ما يقوله ويحفظه ويكتبه ، يسمع ما يأمر به فينفذه ويفعله ، وفي إحدى جلساته معه أخبر الرسول ﷺ عن رجل يطلع عليهم ، وهو من أهل الجنة ، فتعلقت عيون الصحابة إلى حيث أشار رسول الله ﷺ ، فطلع رجل من الأنصار .

فلما كان الغد قال الرسول ﷺ نفس القول وطلع نفس الرجل ، ولما كان اليوم الثالث قال الرسول ﷺ مثل مقالته ، فطلع نفس الرجل الأنصاري ، فلما قام المجلس تبع عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ذلك الرجل يريد أن يعرف حاله ، حتى يكون مثله من أهل الجنة كما أخبر الرسول ﷺ .

طلب عبدالله رضي الله عنه من الرجل أن يضيفه ثلاث ليال ، ففعل الرجل ، وظل عبد الله يراقبه ، طوال الليالي الثلاث ، ماذا يفعل ؟ وكيف يقضي ليله مع ربه ؟ هل سيقضيه بين يدي ربه مصليا ؟ أو مع كتاب ربه قارئا متدبراً ؟ أو رافعاً يديه مناجياً ؟

لابد أن هذا الرجل يجتهد في العبادة أكثر من أي صحابي آخر ، ويكلف نفسه ما لا يطيقه إلا القلة . ربما دارت في ذهن عبد الله رضي الله عنه هذه الأفكار أو غيرها ، غير أنه فوجئ بأن الرجل على عكس ما كان يظنه ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا استيقظ وتقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، حتى إذا ما أذن لصلاة الفجر قام للصلاة وانقضت الليالي الثلاث على هذا النحو ، إلا أنه لم يسمع منه إلا خيراً .

ولما هَمّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بالانصراف قال للرجل : يا عبد الله ، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات : « **يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة** »طلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك ، وأراقبك ، وأنظر

ما عملك ، فاقتدي بك ، فلم أرك تقوم بعمل كبير ، فما الذي بلغ بك هذه الدرجة؟ فقال الرجل : ليس من شيء إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال ابن عمرو رضي الله عنه : هذه التي بلغت بك .

إن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما هنا يطلب أسباب الفوز بالجنة ، فنراه يراقب الرجل المبشَّر بالجنة ليقتدي به ، ويفعل أفعاله أيّاً كان هذا الرجل ، طالما أنه رجل وصفه رسول الله ﷺ بقوله : « **رجل من أهل الجنة** » .

***

مضت الأيام والسنوات بعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وطوت صفحة الخلفاء الراشدين البيضاء ، وفي أثنائها جاهد عبد الله في سبيل الله تعالى كغيره من الأخيار ، وشهد فتح بلاد الشام ، وكان يحمل الراية يوم اليرموك أثناء قتال الروم والانتصار عليهم ، حتى حدث الإختلاف بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ووقعت موقعة الجمل ثم صفِّين فخرج بأمر أبيه كارهاً بعد أن قال له أبوه : يا عبد الله ، ألم يقل لك رسول الله ﷺ أطع أباك .

قال : اللهم بلى . قال : فإني أدعوك أن تخرج وتقاتل . فخرج عبد الله ، ولكنه لم يطعن برمح ، ولم يضرب بسيف ، ولم يرم بسهم ، وحدث في المعركة أن قُتل عمار بن ياسر رضي الله عنهما فتذكر الناس قول الرسول ﷺ لعمار : «**تقتلك الفئة الباغية**» فانتفض عبد الله ثائرًا ، ونفض يديه من القتال ، وظل يلوم نفسه طوال حياته على هذا الموقف ، ويقول : مالي ولصفين ، مالي ولقتال المسلمين ، لوددت أني مت قبله بعشرين سنة .

وتمضي أيام ، وبينما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنه وجمع من المسلمين في حلقة علم بمجسد رسول الله ﷺ إذ مر بهم الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فسلم ، فرد القوم السلام ، ثم رفع عبد الله بن عمرو صوته بالرد قائلاً : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم عاد يحدث القوم : - ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا : بلى . قال وهو يشير إلى الحسين رضي الله عنه :

هو هذا الماشي، ما كلمني كلمة منذ ليالي صفين، ولأن يرضى عني أحب إليّ من أن يكون لي حمر النعم .

فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : ألا تعتذر إليه، قال : بلى .

وسعى أبو سعيد بينهما لإعداد اللقاء العظيم في دار الحسين بن على رضي الله عنهما .

وفي دار الحسين جري حوار العتاب الأخوي التالي :

أبو سعيد : يا ابن بنت رسول الله، إنك لما مررت بنا أمس أخبرنا عبد الله بن عمرو أنك أحب أهل الأرض إلى أهل السماء .

الحسين (وهو يلتفت إلى عبد الله بن عمرو وتكسو وجهه ابتسامة مشرقة) : أعلمت يا عبد الله أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟

عبد الله : إي ورب الكعبة، إنك لكذلك .

الحسين : فما حملك على أن تاتلتني وأبي يوم صفِّين؟

عبد الله : لقد خرجت مكرهًا طاعة لأبي، فإنه شكاني إلى رسول الله ﷺ يومًا ما، وقال له : يا رسول الله، إن عبد الله يقوم الليل، ويصوم النهار. فقال لي رسول الله ﷺ : «يا عبد الله، صلي ونم، وصم وافطر، وأطع عَمْراً» . فلما كان يوم صفين ذكّرني أبي بذلك، وأقسم عليّ بالخروج . وانتهى الحوار بالحب في الله كما بدأ .

عاش عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يعلّم الناس، وينقل لهم سنة رسول الله ﷺ وسيرته، وكان ـ كما قلنا سابقًا ـ قد قرأ في كتب السابقين، وعلم ما فيها . سأله ذات يوم عطاء بن يسار، وهو أحد التابعين عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فأجابه : إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وحرزًا [1] للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب [2] في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة،

(1) حرزًا : حصنًا وحفظًا .

(2) صخّاب : شديد الصوت

ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غُلفًا.

ومن أعز ما كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يمتكله ويحتفظ به، ويحافظ عليه، صحيفة بها أحاديث سمعها من رسول الله ﷺ مشافهة ليس بينهما أحد، وكان يسميها الصادقة. وهذا يدل على أن السنة النبوية كانت تدون في عهد رسول الله ﷺ.

ثم تمضي الأيام بعبد الله رضي الله عنه ويبتليه الله في آخر عمره بفقد بصره، فيصبر، ويحتسب حتى لبى نداء ربه تعالى في سنة ثلاث وستين للهجرة، وعمره إذ ذاك اثنتين وسبعين سنة. فطوبى له، وهنيئًا له الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقًا.

• من فضائل عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

(1) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**» رواه البخاري ومسلم.

* * *

(8) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

كذلك هو أحد العبادلة، وأحد المكثرين رواية للحديث، وأحد رواة القرآن الكريم، وقد أوصى رسول الله ﷺ بأخذ القرآن عنه حينما قال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءه ابن أم عَبْد**».

أسلم مبكراً، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، وقبل كل ذلك الهجرة إلى الله تعالى من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان.

ابن أم عَبْد، لو رأيت جسده النحيل لاستغربت، ولو رأيت دقه ساقيه لضحكت ولو رأيت شجاعته لتعجبت؛ لأنها لا تتناسب مع وصف جسده، ولكن لو علمت مدى صدق إيمانه واخلاصه لله تعالى لأتاك الخبر اليقين، ولزال عنك أسباب تعجبك، خاصة بعد أن تعلم أنه أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة.

هيا معًا نتعرف على ابن أم عبد أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

***

طرق الإسلام باب قلبه مبكراً، وكان سادس ستة أسلموا واتبعوا النور الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، ولإسلامه قصة جديرة بالرواية والذكر.

بينما كان يرعى غنمًا لسيد من سادات قريش يسمى عقبة بن أبى معيط إذ جاءه رجلان يبدو عليهما التعب والإرهاق، وقد جفَّا حلقاهما من شدة العطش، فقالا له: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا. قال: إنى مؤتمن، ولست بصاحب الغنم، ولست ساقيكما. فابتسما الرجلان لقوله. وقال أولهما: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل[1]. فقال: نعم، ثم ذهب وأحضر الشاة فأمسكها الرجل، ومسح ضرعها، ثم أخذ يحرك شفتيه بكلمات مباركات، وما هى إلا لحظات حتى امتلأ الضرع باللبن، فأتاه الرجل الآخر بحجر مجوف فملأه بالحليب بعد أن نظفه. شرب الرجلان، ثم شرب ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال الرجل الأول للضرع: اقلص[2]. فعاد الضرع كما كان وعبد الله فى ذهول وعجب، ثم قال للرجل الأول: علمنى من هذا القول. فأجابه: إنك غلام مُعَلَّم.

---

(1) لم ينز عليها الفحل: أى شاة صغيرة بكر.

(2) اقلص: انقبض.

وانصرف الرجلان اللذين لم يكونا سوى رسول الله ﷺ الرجل الأول، وصاحبه الصديق أبا بكر رضي الله عنه الرجل الثانى، ولم تكن الكلمات المباركات إلا دعاء الله تعالى. . أسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بعد أن رأى هذه المعجزة، وأدرك أن هذا الرجل إنما جاء بدين الحق، وأن القوم مخطئون فى تكذيبه.

أسلم عبد الله رضي الله عنه وانضم إلى قافلة الأوائل، وقد أخبر هو عن نفسه أنه سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرهم.

ولما أسلم أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه، ويتعلم منه، ويأخذ القرآن الكريم حتى أصبح مدرسة تنقل القرآن قراءة وعملاً، منهجًا وتطبيقًا، وتنقل السنة قولاً وعملاً، نصًا وسلوكًا، وقد حاز شرف الأخذ عن رسول الله ﷺ مشافهة، حتى أنه قال عن نفسه «**أخذت من فم الرسول ﷺ سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد**».

وكان يدخل بيت النبى ﷺ كأنه أحد أفراده، حتى ظن أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه حين قدم من اليمن مهاجرًا أنه رجلٍ من أهل بيت النبى ﷺ.

وكان يُعرف بين الصحابة بصاحب السواد[1] والسواك، فقد كان يرافق الرسول ﷺ فى حله وترحاله، يلبسه نعليه، ويوقظه إذا نام، ويمشى معه وأمامه أينما سار، ويستره إذا اغتسل، ويحمل له سواكه وعصاه، مما أتاح له أن يراقب النبى ﷺ فى كل شؤنه وأحواله ويتأسى به، ويكون كما وصفه حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما «**أقرب الناس هديا وسَمْتًا[2] برسول الله ﷺ**».

***

حينما اشتد إيذاء قريش للمسلمين هاجر بعضهم إلى الحبشة مرة ومرة كما أوصاهم رسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من الذين هاجروا الهجرتين إلى الحبشة، إذ لم تكن له من عشيرة تحميه، ولا منعة تمنعه، ومع كل هذا كان يمتلك قلبًا شجاعًا، جعله يتحدى طغيان أهل الشرك فى مكة المكرمة، ويسمعهم ما يكرهون، ويكون أول من يجهر بالقرآن الكريم من الصحابة الكرام، وذلك أنه

---

(1) السواد: السر.
(2) سَمْتًا: هيئةً.

اجتمع ذات يوم أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم لبعض: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط. فهل من رجل يسمعهم؟. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أنا. فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه منهم إذا أرادوه بسوء. فقال: دعونى فإن الله سيمنعنى. وفى ضحى الغد وقف ابن مسعود رضي الله عنه قريبًا من مجلس قريش، وجلس ورفع صوته تاليًا: «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. . . .﴾ [أول سورة الرحمن].

فسمعوه، فقال بعضهم: ما يقول ابن أم عبد؟ فأجاب الآخرون: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. ثم قاموا إليه جميعًا وأخذوا يضربونه فى وجهه وجميع جسده ليكف عن مواصلة القراءة، ولكنه أخذ يقرأ ويقرأ حتى بلغ من التلاوة ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه ودماؤه تنزف ووجهه متورم من شدة الضرب. فقالوا له: هذا الذى خشينا عليك! فأجابهم: ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن، ولئن شئتم فعلتها معهم غدًا. فنهروه قائلين: حسبك. قد أسمعتهم ما يكرهون. وليس لنا من تعليق سوى القول بأنه الإيمان الثابت والعقيدة التى لا تتزعزع العقيدة التى تملأ القلوب شجاعة، وتهون أمامها كل الصعاب.

إن المشركين رأوا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً ضعيفًا، لا عشيرة له تدافع عنه ولا يمتلك قوة بدنية يدفع بها عن نفسه شر ما يلاقى. أما هو فقد رأى فى نفسه قوة مستمدة من قوة إيمانه بالله القوى العزيز، تلك القوة التى جعلته يجهز على عدو الله أبى جهل وذلك الطاغية الذى طالما آذى المسلمين بقوله وفعله عندما التقى الجمعان، يوم الفرقان، يوم بدر الكبرى.

***

بعد انتهاء معركة بدر الكبرى بانتصار ساحق للمسلمين أمر الرسول ﷺ بالتماس أبى جهل فى القتلى، فذهب ابن مسعود يبحث عنه، فوجده وبه رمق فوضع رجله على عنقه، وقال له: هل أخزاك الله يا عدو الله. فقال أبو جهل: أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟ فأجابه: لله ورسوله. ثم أخذ عبد الله رضي الله عنه سيفه وقطع به رأس أبى جهل، وذهب بها إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل. فحمد رسول الله ﷺ ربه تعالى.

وبعد بدر شهد عبد الله بن مسعود المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعد وفاة رسول الله ﷺ ظل يقاتل فى سبيل الله تعالى بالكلمة والسيف حتى أنه شهد معركة اليرموك بين المسلمين والروم بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه.

* * *

أتاحت ملازمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لرسول الله ﷺ الأخذ عنه، والتلقى منه سواء القرآن الكريم، أو السنة النبوية، ولذلك فهو من أكثر رواة الأحاديث النبوية. ويروى التاريخ الصادق أن رسول الله ﷺ قال له يومًا: «**إقرأ علىّ القرآن**» وقال: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أُنزل. فأجابه ﷺ: «**إنى أشتهى أن اسمعه من غيرى**». فقرأ ابن مسعود رضي الله عنه سورة النساء حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: 41] فسمع صوت رسول الله ﷺ يقول: «**أمسك** ـ أى حسبك **ما قرأت** ـ» فنظر ابن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فإذا عيناه تذرفان بالدموع. وهذا الموقف يدل على تمكن ابن مسعود من القرآن الكريم، وكان ذلك شهادة عملية من رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه باجادته لكتاب ربه تعالى، وذلك غير شهادته القولية، فقد دخل ﷺ المسجد ذات يوم، فوجد عبد الله يصلى ويتغنى بكتاب الله تعالى، فسُر رسول الله ﷺ منه، ثم قال: «**من سره أن يقرأ القرآن غضًا طريًا فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**».

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان موسوعة قرآنية ناطقة، فاهمًا لمعانيه، متمكنًا من قراءاته، عالمًا بأحكامه، وأسباب نزوله. فقد أخبر عن نفسه قائلاً: «**لقد علم أصحاب محمد ﷺ أنى أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغينه الإبل لأتيته**».

وهكذا يكون حب العلم وطلبه، وهكذا يكون تواضع العلماء الذى نراه فى قوله «**وما أنا بخيرهم**».

* * *

ولعبد الله بن مسعود رضي الله عنه منزلة عالية عند الله تعالى، ومكانة عظيمة فى قلب رسول الله ﷺ وصحابته، يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ طلب منه يومًا أن يصعد شجرة ليأتيه منها بشئ، فنظر الصحابة إلى دقة ساقيه حين صعد الشجرة،

فضحكوا. فقال لهم الرسول الكريم ﷺ: «**ما تضحكون!! لَرِجْل عبد الله أثقل فى الميزان يوم القيامة من جبل أحد**».

ولشدة تقواه وورعه وثباته على الحق أوصى الرسول ﷺ قائلاً: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**».

ولما لا وهو الذى يسمع فيطيع، ويعمل فيخلص، وينصر السنة، ويحارب البدعة، ويحرص على أداء شعائر الإسلام كما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ. فمن ضمن أقواله الصحيحة المشهورة عن أهمية الصلاة ومنزلتها، وأهمية صلاة الجماعة وتأكيدها «**من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وانهن من سنن الهدى، ولو صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ـ الوضوء ـ ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى بها يُهَادي بين الرجلين[1] حتى يقام فى الصف**».

ونفهم من هذا القول العظيم أن الحفاظ على شعائر الدين، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ كان الشغل الشاغل، والهم الكبير لابن مسعود رضي الله عنه، وذلك لأنه رجل تربى فى مدرسة محمد ﷺ، وتخرج منها عالمًا بطلاً مغواراً عارفًا بالله محبًا له، بازلاً ما بوسعه لنشر الحق فى ربوع الدنيا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذلك فقد قال رجل فى مجلس على بن أبى طالب رضي الله عنه «ما رأينا رجلاً أحسن خُلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من ابن مسعود» فقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: أنشدكم الله[2]، أهو الصدق من قلوبكم؟. قالوا: نعم. فقال: «**اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا، وأفضل من قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة**».

يا لها من شهادة حقة، وكلمة صادقة خرجت من قلب رجل مشهود له بالجنة فى حق هذا الصحابى الجليل، ابن أم عبد رضي الله عنه.

---

(1) يُهَادى بين الرجلين: يعتمد عليهما لضعفه.

(2) أنشدكم الله: استحلفكم بالله.

وتمضى الأيام، وفى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ابن مسعود رضي الله عنه أميراً على الكوفة، فلقد أرسله إلى أهلها معلمًا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عمار بن ياسر رضى الله عنهما الأمير، وكتب إليهم يقول: «**إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاقتدوا بهما، واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى**».

أرسل إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه يستدعيه إلى المدينة، وبعد أن وصلها بأيام مرض، ونام طريح الفراش، فذهب إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه يعوده، فدار بينهما الحوار التالى الرائع الذى يدل على زهد ابن مسعود رضي الله عنه فى الدنيا، ومدى خوفه من الله تعالى، ورغبته فيما عنده سبحانه.

عثمان رضي الله عنه: ما تشتكى؟

ابن مسعود رضي الله عنه: ذنوبى.

عثمان رضي الله عنه: فما تشتهى؟

ابن مسعود رضي الله عنه: رحمة ربى.

عثمان رضي الله عنه: ألا آمر لك بطبيب؟

ابن مسعود رضي الله عنه: الطبيب أمرضنى.

عثمان رضي الله عنه: ألا آمر لك بعطائك الذى امتنعت عن أخذه منذ سنين؟

ابن مسعود رضي الله عنه: لا حاجة لىٰ فيه.

ويخرج ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يدعو لابن مسعود رضي الله عنه بالشفاء والرحمة.

وبعد أيام قليلة لبى ابن مسعود رضي الله عنه نداء ربه تعالى، ومات فى السنة الثانية والثلاثين بعد الهجرة، وكان عمره وقتها أكثر من ستين عامًا، قضاها بين الجهاد والكفاح، والتعلم والتعليم، والأخذ عن رسول الله ﷺ ثم تبليغه للناس ودراسة القرآن الكريم ثم تدريسه.

مضى رجل لم تغره الدنيا يومًا ما، أو تأخذه بين أحضانها وزخارفها.

مضى رجل من صحابة رسول الله ﷺ ليتلقاه على الحوض مع اخوانه السابقين الأولين، والمجاهدين المكافحين، والعلماء الناشرين، رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

• **من فضائل عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

(1) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**» رواه ابن ماجه وأحمد وحسنه الألبانى.

(2) عن على بن أبى طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَرِجْل عبد الله أثقل فى الميزان يوم القيامة من جبل أحد**». رواه البخارى فى الأدب المفرد، والامام أحمد وصححه الألبانى.

(3) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «والذى لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما انزلت، ولو أعلم أحدًا هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه» رواه الشيخان.

***

(9) خُبَيْب بن عدى رضي الله عنه

هو أول من صلب فى سبيل الله، وأول من سن ركعتين قبل قتله. إنه خُبَيب بن عدى الأوسي الأنصارى، بليع الأرض، وشهيد يوم الرجيع ـ اسم موضع ماء ـ لم نعرف من حياته إلا أنه قتل غدراً مع اخوانه فى سبيل الله تعالى، وحزن الرسول ﷺ عليهم حزنًا شديداً، وقبل استشهاده لقن المشركين درسًا عظيمًا فى البطولة والشجاعة، بل وعلمهم كيف يكون الحب لرسول الله ﷺ.

هيا معًا نقلب الأوراق، ونقترب من حياته، أو بعض حياته أكثر وأكثر.

***

كغيره من شباب الأنصار بادر إلى الدخول فى دين الله، والسبق إليه، فقد كان ذا عقل راجح يسمع عن الحق فيسير إليه، ويسمعه فينصت له ويسير عليه. هو من خيار شباب الإسلام المجاهد، فقد شهد غزوة بدر وأحد وبذا فهو من طليعة المجاهدين فى المعارك الأولى. وفى غزوة بدر أبلى أعظم البلاء وأحسنه وقتل فيها صنديداً [1] من صناديد قريش هو الحارث بن عامر بن نوفل، فحفظ أهل الحارث اسم خبيب جيداً، وودوا لو ظفروا به لإدراك ثأر سيدهم الحارث.

وتشاء إرادة الله تعالى أن يبعث رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه يتحسسون أخبار قريش، ويستطلعون تحركاتها، واستعداداتها لغزو المسلمين؛ فاختار عاصم بن ثابت رضي الله عنه أميراً على السرية التى ضمت خبيب بن عدى رضي الله عنه، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى رضي الله عنه، وغيرهم واتجهت السرية نحو مكة المكرمة فى صفر من السنة الرابعة للهجرة، وفى الطريق بين عسفان [2] ومكة علمت بهم إحدى قبائل العرب المشركة، وهم بنو لحيان، فأرسلوا فى أثرهم [3] مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر، فقال بعضهم لبعض ـ وكانوا أهل علم وفراسة ـ نوى تمر يثرب، إنهم فى هذه المنطقة لم يبعدوا عنها. وأخذوا يتتبعون آثارهم حتى وصلوا إليهم، وكان المسلمون لما علموا بهم قد لجأوا إلى موضع مرتفع يتحصنون فيه فأحاط بهم المشركون من كل جانب، وطلبوا

(1) صنديد: الشديد.

(2) عسفان: قرية بين مكة والمدينة.

(3) أثرهم: خلفهم وورائهم.

منهم الاستسلام، وقالوا لهم: انزلوا واستسلموا، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا. فقال عاصم بن ثابت رضي الله عنه أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فما كان من المشركين إلا أن رموهم بالنبال، فقُتل عاصم رضي الله عنه فى سبعة من أصحابه، وبقى خبيب بن عدى رضي الله عنه وزيد بن الدثنة رضي الله عنه، وعبد الله بن طارق رضي الله عنه، فنزلوا على العهد والميثاق، فلما تمكن منهم المشركون ربطوهما. فقال عبد الله بن طارق رضي الله عنه: هذا أول الغدر. والله لا أصحبكم، إن لى بهؤلاء أسوة ـ يعنى أصحابه الذين قتلوا ـ وأخذ يقاومهم ويحاول أن يفك قيده، وأبى أن يصحبهم. فجرجروه حتى قتلوه، ومضى شهيدًا إلى ربه كإخوانه السابقين.

بقى خبيب بن عدى رضي الله عنه، وزيد بن الدثنة رضي الله عنه فقدم بهما المشركون مكة المكرمة، وما أن سمع بنو الحارث بن عامر اسم خبيب بن عدى رضي الله عنه حتى تذكروه، وكيف ينسوا قاتل سيدهم الحارث يوم بدر، وكيف ينسوا ثأرهم منه وقلوبهم مازالت مشتعلة غيظًا وهمًا، وآن لهم أن يثأروا لسيدهم فها هو القاتل يباع أمامهم، فاسرعوا إلى شرائه ليطفئوا بدمائه نار أحقادهم.

***

فوّض خبيب رضي الله عنه أمره إلى الله تعالى عندما أخذه المشركون وأوثقوه وسجنوه، وساموه سوء العذاب[1] ليردونه عن دينه، فأبى، فأخبروه بمقتل زميله زيد بن الدثنة رضي الله عنه لتنهار مقاومته، ويعطيهم ما يريدون، ولكن فشلت محاولاتهم، وظل خبيب رضي الله عنه متمسكًا بإيمانه، قابضًا على دينه، ثابتًا على عقيدته، فقرروا قتله والخلاص منه، فحبسوه فى أحد ديارهم لحين إعداد صليب من جذوع النخل حتى يصلبوه عليه.

وتحكى امرأة من بنى الحارث عن المدة التى مكثها خبيب رضي الله عنه، فتقول أنها اطلعت عليه ذات يوم فى محبسه، فرأت فى يده قِطْفًا[2] من عنب يأكل منه وهو موثق[3] فى الحديد وما بمكة يومئذ من ثمرة.

(1) ساموه سوء العذاب: أذاقوه أشد العذاب.
(2) القطف: العنقود حين يقطف.
(3) موَثق: مقيد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

ثم تحكى المرأة إن خبيبًا لما علم بموعد قتله استعار منها موسى لإزالة شعر عانته؛ استعدادًا للقاء ربه، فأرسلته إليه مع صبى لها، فلما دخل عليه الصبى بالموس طار عقل المرأة، وقالت فى نفسها: ماذا صنعت؟! لقد أصاب الرجل ثأره، إن الصبى أمامه، والموس بيده، فيقتله فيكون رجلاً برجل.

ويدرك خبيب رضي الله عنه فزع المرأة وخوفها على ابنها، فيطمئنها قائلاً: أتحسبين أن أقتله؟! ما كنت لأفعل ذلك، إن ديننا يحرم علينا الغدر.

***

جهز المشركون عدتهم، وفى اليوم المحدد لقتل خبيب رضي الله عنه وصلبه، خرجوا به من الحرم إلى التنعيم[1] حتى لا يقتلوه فى الحرم، ولما وصلوا إلى حيث يريدون طلب منهم خبيب رضي الله عنه أن يَدَعوه حتى يصلى ركعتين، فقالوا له: دونك فاركع. فصلى ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم يقول لهم: والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعًا من القتل لزدت من الصلاة واستكثرت.

.. وبذلك فخبيب رضي الله عنه هو أو من سن صلاة ركعتين قبل القتل.

التفت أبو سفيان بن حرب ـ وكان يومئذ مشركًا ـ إلى خبيب رضي الله عنه، وسأله كما سأل زيد بن الدّثنّة رضي الله عنه قبله: يا خبيب، أتحب أن تكون فى أهلك وولدك معافى آمنًا ويكون محمد مكانك؟ فانتفض خبيب رضي الله عنه عند سماع السؤال، وأجاب بصوت قوى: لا والله ما أحب أن أكون فى دارى آمنًا معافى ومعى الدنيا وما فيها ويصاب محمد ﷺ بشوكة.

نفس المعنى الذى ذكره زيد بن الدثنة رضي الله عنه قبل قتله.

يستمع أبو سفيان بن حرب إلى هذه الكلمات فيتملكه العجب، فيضرب كفًا بكف وهو يقول: والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما رأيت أصحاب محمد يحبون محمدًا، ثم أمر برفع خبيب رضي الله عنه وربطه ليتم صلبه، فيلتفت خبيب رضي الله عنه وهو مقيد معلق إلى من حوله، فيقول: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه ما يصنع بنا،

(1) التنعيم: اسم موضع خارج الحرم.

ثم دعا ربه: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً[1] ولا تبق منهم أحداً. ثم أنشد قائلا:

ولست أبالى حين أُقتَـــل مسلمًـــا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى[2]

وذاك فى ذات الإلـــه وإن يشـــأ ... يبارك على أوْصال[3] شِلْو[4] ممـزّع[5]

ولم يتمالك المشركون أنفسهم أمام هذه الشجاعة النادرة، والبطولة الفائقة فرموه بالنبل حتى قتلوه، ثم تركه مصلوبًا.

وفى هذه اللحظات كان جبريل عليه السلام قد أخبر رسول الله ﷺ بما حدث لأهل السرية، فأرسل عمرو بن أمية الضمرى رضي الله عنه إلى حيث صُلب خبيب بن عدى رضي الله عنه لانزاله ثم دفنه.

وصل عمرو بن أمية رضي الله عنه متخفيًا إلى حيث توجد الجثة الطاهرة دون أن يعلم به أحد، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المهمة المكلف بها، وهو يخشى أن يراه راء. وجاءت لحظة غافل فيها من كان يحرس جثة خبيب رضي الله عنه، فصعد وحل وثاقه[6]، وفك رباطه ثم احتمله وسار به، فعلم به أهل مكة، فاقتفوا أثره، وساروا خلفه حتى إذا كانوا على مقربة منه سقطت منه جثة الشهيد. ورأى عمرو بعينى رأسه أن الأرض قد انشقت وابتلعتها. ولا يُعلم لخبيب رضي الله عنه قبر إلى الآن. كل ما يمكن أن يقال هو أن الأرض قد ضمت جسده الطاهر، أما روحه الخالدة فهى فى السماء، بل فى الفردوس الأعلى؛ لتنعم بما أعده الله لها.

• من فضائل خبيب رضي الله عنه:

(1) روى البخارى أن امرأة من بنى الحارث قالت عن خبيب يوم أن كان أسيراً قبل قتله بمكة «ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وانه لموثق فى الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله».

---

(1) بددًا: متفرقين.

(2) مصرعى: مقتلى.

(3) أوصال: جمع وَصْل، وهو العضو.

(4) شلْو: يطلق على العضو، وهو هنا بمعنى الجسد.

(5) ممزَع: مقطّع.

(6) حل وثاقه: فك قيده ورباطه.

(10) خباب بن الأرت رضي الله عنه

أوذى فى الله إيذاءً شديداً، وعُذِّب عذابًا أليمًا، حتى أن لحم ظهره ذهب من شيه بالنار، فما نطق بكلمة الكفر، ولا أعطى الكفار ما يريدون، وكانت سيدته أم أنمار تكويه بالنار فى رأسه حتى احترقت، فصبر وتحمل.

مر به رسول الله ﷺ يومًا ورق لحاله، ودعا الله تعالى له قائلاً: «اللهم انصر خبابًا» فأصيبت سيدته بداء عضال[1] ولم يكن لها من علاج سوى كيها بالنار فى رأسها.

فمن هو خباب بن الأرَت ؟ وما هى قصة إسلامه وقصة حياته؟ وما هى مواقفه وجهاده ومشاهده مع رسول الله ﷺ، وجهاده فى سبيل الله بعد رسول الله ﷺ؟ وفى النهاية كيف كانت وفاته؟

***

لم يكن خَبَّاب بن الأرت مكيًا، إنما نجدى من قبيلة تميم، وعندما كان ظلام الجاهلية يخيم على الحياة فى ذلك الوقت البعيد حيث القتل والسرقة والنهب وعبادة الأصنام، أغارت قبيلة من القبائل على بنى تميم، فنهبت الأموال، وقتلت الرجال، وسبت النساء والذرارى. وكان خباب وقتها غلامًا صغيراً، وظل يباع ويشترى وينتقل من يد إلى يد حتى وصل إلى مكة المكرمة، فاشترته امرأة تسمى أم أنمار بنت سباع الخزاعية، وارسلت به إلى حداد من مكة يعلمه صناعة السيوف والدروع، فتعلم خباب الصنعة واتقنها وحذقها.

شب خباب رضي الله عنه عاقلاً حليمًا يريد أن يرى لهذا الليل من فجر، ولهذا الظلم من عدل. كان يبحث عن الحق والنور، ويود لو وجدهما لسافر إليهما المسافات الطوال، وتحمل فى سبيلهما المشاق الصعاب، ويرى أنه ما أتى به من نجد إلى مكة، وما جعله رقيقًا إلا ظلم العادات، وظلام القلوب، وباطل المعتقدات، ولكن قدر الله تعالى كان يريد لخباب رضي الله عنه الخير؛ فلقد أشرق النور ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ الذى كثيراً ما سمع خباب عن رجاحة عقله، وصدق حديثه، وسماحته فى البيع والشراء والمعاملات بين الناس.

---

(1) داء عضال: مرض شديد، لا علاج له.

بُعث الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ـ كما يلقبونه ـ برسالة الإسلام من رب العَالمين، فاستبشر الضعفاء والعقلاء خيراً ببعثته، وخباب منهم، ولهذا سارع بتصديقه والإيمان به.

***

ما أن ترامى إلى أذنى خباب رضي الله عنه أن محمداً بن عبد الله ﷺ بُعث بدين يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، حتى مضى إليه مصدقًا به وبما جاء به، غير مبال بما سيلاقيه من عذاب وأهوال جراء هذا التصديق وذلك الإيمان.

مد خباب يده وصافح رسول الله ﷺ وشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فانضم إلى قافلة الإيمان التى كانت تضم وقتها ستة نفر، وبذلك فهو من السابقين الأولين فى الإسلام، وانضم كذلك إلى قافلة المعذبين المضطهدين التى ضمت بلالاً، وصهيبًا، وآل ياسر، وغيرهم من الذين لم يكن لهم عشيرة تحميهم أو منعة تمنع عنهم.

ما أن سمعت أم أنمار بإسلام خباب، وكفره بآلهتها وآلهة قومها حتى سامته سوء العذاب من ضرب وجلد أولاً عساه أن يعود، فلا يعود. فضاعفت له العذاب وألبسته دروع الحديد، وتركته فى الصحراء المحرقة ليرجع فلم يرجع. فضاعفت له العذاب أكثر وأكثر حتى وصل الأمر إلى كيه بالنار فى رأسه حتى احترقت، ولكنه ظل صابراً ثابتًا على الحق معلنًا إيمانه بالله وحده وكفره بهذه الحجارة التى تعبد من دون الله، متحديًا بذلك الجميع، ومثيراً فى نفوسهم العجب.

ولَمَّا لم تفلح أم أنمار فى محاولاتها مع خباب رضي الله عنه دفعته إلى غلمان لها يضعونه على الحجارة المشتعلة، ويؤخذ خباب رضي الله عنه ويوضع على ظهره، ثم يوضع على صدره الحجر الثقيل حتى لا يقوم، فيحترق لحم ظهره، ولا يطفئ لهيب الحجارة المشتعلة إلا دهن ظهره الذى يسيل. ويتعجب القوم أى صبر هذا، بل أى دين هذا الذى تهون فى سبيله الحياة، وتحرق من أجله الأجساد.

ويشتد العذاب على خباب رضي الله عنه حتى يفوق الإحتمال والوصف، ويذهب يومًا

مع اخوانه المستضعفين المعذبين إلى رسول الله ﷺ فيجدونه متكئًا على بُردة[1] له فى ظل الكعبة، ويشكون له ما يلاقونه ويقاسونه، قائلين: يا رسول الله، ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟. فيجلس الرسول ﷺ وقد أحمر وجهه وهو يقول: «**قد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له فى الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر ـ وهو رسالة الإسلام ـ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون**».

ويسمع الرفاق هذه الكلمات فيجدون فيها الصدق والبشرى بنصر الله القريب، فما عليهم إلا الصبر، فإن النصر مع الصبر.

ويعود خباب رضي الله عنه يواصل صبره وتحمله الشدائد حتى أن رسول الله ﷺ مر به ذات يوم، وهاله[2] ما رآه، فرق له، ودعا الله قائلاً: «**اللهم انصر خبابًا**» وما هى إلا أيام حتى أجاب الله تعالى دعاء رسول الله ﷺ لخباب رضي الله عنه.

***

أصيبت أم أنمار بصداع شديد فى رأسها حتى أنها كانت تعوى من شدة الألم مثل الكلاب والذئاب، بحثوا لها عن علاج فلم يجدوا. واشتدت الآلام بها، ومرة أخرى ذهبوا للبحث عن العلاج المناسب لهذا الداء الذى ما سمع بمثله أبدًا، فأخبروا أنه ليس لها من علاج سوى كيّها بالنار على رأسها، فتنسيها آلام الكى آلام الصداع. فتذهب أم أنمار بنفسها، أو يذهب ذووها إلى خباب رضي الله عنه ذلك العبد الذى يعمل حدادًا. وطالما أحرقوا رأسه بالنار، ويطلبون منه أن يحمى الحديد، ويكوى بها رأس أم أنمار، فيرفع خباب رضي الله عنه الحديد المحمى، ويضعه على رأسها وهى تصرخ بشدة حتى يغمى عليها. وهنا يتذكر خباب رضي الله عنه دعاء الرسول ﷺ له: «**اللهم انصر خبابًا**» فيقول فى نفسه: صدقت يا رسول الله.

وتتنوع أساليب العذاب، وتتعدد أنواع الإيذاء الواقعة على خباب رضي الله عنه ما بين عذاب بدنى إلى عذاب نفسى، فقد حدث أن أحد مشركى مكة وهو العاصى بن

---

(1) بردة: عباءة أو كساء يلتحف به.

(2) هالة: أفزعه.

وائل السهمى كان لخباب رضي الله عنه عليه مالاً، حيث أنه عمل له بعض السيوف، ولما ذهب إليه مطالبًا بما له وأجرته. قال له العاصى بن وائل: والله لا أقضيك ولا أعطيك مالك حتى تكفر بمحمد. فقال خباب رضي الله عنه: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. فقال العاصى: فإذا أنا مت ثم بعثت جئتنى. أولستم تزعمون أن بعد الموت بعث، وبعد البعث جنة أو نار؟ أجاب خباب رضي الله عنه: بلى. فاكمل العاصى سؤاله: وتزعمون أن فى الجنة ذهبًا وفضة ومالاً ونعيمًا؟ قال: بلى. قال العاصى ساخرًا: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولدًا، وساعتها سأعطيك حقك. ثم أطلق ضحكة السخرية العالية وهو يمضى بعيدًا عن خباب رضي الله عنه.

وذهب خباب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يشكوإليه، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 80:77].

***

لم يكن خباب بن الأرت رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام فحسب إنما كان معلمًا ومرشدًا وقارئًا ومقرئًا للقرآن الكريم، فبعد اعتاقه ألحقه رسول الله ﷺ بسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وزوج فاطمة بنت الخطاب يعلمهما القرآن وما ينزل من أحكام، ويشاركهما طعامهما وشرابهما، حتى جاء يوم علم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو لم يسلم بعد - بإسلام أخته فاطمه وزوجها سعيد رضى الله عنهما، وكان عندهما خباب رضي الله عنه فتوارى[1] فى ناحية من البيت عندما سمع وقع أقدام عمر رضي الله عنه وصوت يده يطرق بها على الباب، وعندما دخل عمر رضي الله عنه أخفت أخته صحيفة أتى بها خباب رضي الله عنه ليتلو عليها وعلى زوجها ما فيها من قرآن.

دخل عمر رضي الله عنه فبطش[2] باخته وزوجها، ولكنه ما أن قرأ ما فى الصحيفة، وتلا القرآن الكريم حتى شرح الله صدره للإسلام، وقال: ما أحسن هذا الكلام - عندها خرج خباب رضي الله عنه من مخبئه وهو يصيح بسرور: يا عمر، والله إنى لأرجو أن

(1) توارى: اختفى.
(2) بطش: أخذ بشدة وعنف.

يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: «**اللهم أيد الإسلام بأحب العمرين إليك، عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب**» فالله الله يا عمر. فقال عمر رضي الله عنه: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال خباب رضي الله عنه: هو فى بيت عند الصفا مع نفر من أصحابه، وأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وعندما أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، كان خباب رضي الله عنه من أوائل المهاجرين، وكان من أهل الصُّفّة، وهم فقراء المهاجرين الذين كانوا يجلسون فى مسجد الرسول ﷺ ولا هم لهم إلا حفظ القرآن وترتيله والصلاة مع رسول الله ﷺ والجهاد معه إذا خرج، فإذا أتى الليل أووا إلى المسجد يقضون فيه ليلتهم بين ذكر وقيام ومبيت.

وعندما قامت دولة الإسلام فى المدينة المنورة كان لابد لها أن تصطدم مع أهل الباطل، وتقوم الحروب دفاعًا عن النفس، أو نشرًا للحق والنور. وعند اصطدام جيش الإيمان بجيوش الكفر كان خباب رضي الله عنه المقاتل الشجاع، والمجاهد الذى لم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى مشهد من المشاهد، فقد شهد معه جميع الغزوات والمشاهد، وعاش معه مجاهدًا حتى لقى ربه رضي الله عنه، وتولى الخلافة أبو بكر الصديق فواصل خباب رضي الله عنه جهاده وكفاحه حتى تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب بعد الصديق رضي الله عنه.

كان عمر رضي الله عنه يعرف قدر خباب رضي الله عنه كغيره من السابقين الأولين وأصحاب بدر، فقد دخل عليه خباب رضي الله عنه ذات يوم فأجلسه عمر بجواره، وبالغ فى احترامه وتقديره، وقال له: ما أحد أحق بهذا المجلس منك غير بلال. ثم سأله عمر رضي الله عنه: ما أشد ما لقيت من العذاب وأذى المشركين؟ فاستحيا خباب رضي الله عنه أن يجيبه. فألح عليه، فكشف خباب رضي الله عنه ظهره، ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهاله [1] ما رأى، لقد رأى ظهرًا خاليًا من اللحم. دهش عمر رضي الله عنه وتعجب سائلاً: كيف صار ذلك؟! فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أوقد لى المشركون نار وجردونى من ثيابى، ووضعوا ظهرى عليها ثم سحبوني حتى سقط لحمى فما أطفأها إلا لحم ظهرى وشحمه والماء الذى تقاطر منه.

---

(1) هاله: أخافه وأفزعه.

وتمضي الأيام، وترتفع راية الإسلام على بقاع جديدة يفتحها المسلمون، وينشرون فيها نور الله ودينه الذي ارتضاه للناس جميعًا. ويفيض المال ويكثر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ويصبح خباب رضي الله عنه ذا مال وفير لكبر عطائه، فهو من السابقين الأولين، وأصحاب بدر.

***

سكن خباب رضي الله عنه الكوفة، واتخذ بها داراً وكان كريماً محسناً، لا يرد محتاجاً، ولا يمنع محروماً، ولا ينهر سائلاً، بل إنه كان يضع أمواله من الدراهم والدنانير في موضع من بيته يعرفه ذوو الحاجات دون أن يجعل عليها رباطاً أو وثاقاً، فيدخل الفقير أو المسكين أو المحتاج فيأخذ منه ما يشاء دون استئذان. ورغم هذا فقد كان يخشى أن يحاسب على ذلك المال. وكان كثير الخوف والبكاء على انفتاح الدنيا ومتعها، ودائما يتذكر رسوله ﷺ واخوانه الذين رحلوا قبله وسبقوه إلى الجنة قبل أن تفتح عليهم الدنيا، ويأخذون نصيبهم منها، ويخشى أن يكون هذا الفتح، وهذا المال ثوابا لعمل عمله. فقد كان رضي الله عنه يرجوا أجر الآخرة، ويعلم أن أجر الأجرة أكبر وأبقى، ويدل على ذلك ما قاله عند وفاته.

***

عاش خباب رضي الله عنه إلى أن تولي الخلافة على بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي سنة سبع وثلاثين للهجرة المباركة كان خباب رضي الله عنه قد بلغ من العمر ثلاثاً وسبعين سنة وفيها مرض مرضاً شديداً وطال مرضه حتى أنه قال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به.

ذهب جمع من الصحابة يعودونه في مرضه، فقالوا له: أبشر يا أبا عبد الله، فإنك ملاق إخوانك غداً، وترد الحوض على رسول الله ﷺ. فقال: كيف لي بهذا وأنا في هذه الدار ـ يقول ذلك هو ينظر إليها من أعلى إلى أسفل ـ ويكمل: وقد قال رسول الله ﷺ: إنما يكفي أحدكم كزاد الراكب. ثم يبكي ويشتد بكاؤه، ثم يكمل: ما أبكي جزعاً [1] من الموت أو حباً للدنيا، ولكنكم ذكرتموني أقوامًا،

(1) جزعاً: عدم صبر.

وسميتم لي إخواناً مضوا بأجورهم كلها ولم ينالوا من هذه الدنيا شيئاً ، وإنا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما أخاف أن يكون ثواباً لأعمالنا .

فقال بعضهم : اذكر صحبة النبي ﷺ ، ومشاهدك معه ، فيقول : إن في هذا المكان ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت عليها وثاقاً ولا خيطاً ، ولا منعتها من سائل .

وفي اللحظات الأخيرة أوصى خباب رضي الله عنه بأن يدفن خارج الكوفة ، فقد كان الناس آنئذ يدفنون موتاهم على أبواب دورهم ، وفي أفنية [1] منازلهم ، وبعدما أوصى شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم لبى نداء ربه تعالى ، ومضى إليه راضياً مرضياً .

وعندما عاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه من موقعة صفين إلى الكوفة ، وقبل أن يدخلها مر بسبعة قبور . فقال ما هذه القبور ؟ فلم تكون موجودة قبل موت خباب رضي الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، إن خباب بن الأرت رضي الله عنه توفي بعد مخرجك إلى صفين ، فأوصي أن يدفن خارج الكوفة . فقال علي رضي الله عنه : رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، هاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

رضي الله عن خباب وأرضاه ، فقد أبدله الله تعالى داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله .

*** من فضائل خباب بن الأرت رضي الله عنه :**

(1) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « رحم الله خباباً أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى في جسمه أحوالاً ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً» .

* * *

(1) أفنية : جمع فناء ، وهو ساحة في الدار .

(11) أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه

هو من كبار الصحابة ، شهد بيعة العقبة وبدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ بل ظل يجاهد في سبيل الله تعالى في عهد الخلفاء الراشدين حتى نال الشهادة أثناء حرب المسلمين لفتح القسطنطينية في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

بيته بيت مبارك ، إذ كان البيت الذي نزل فيه رسول الله ﷺ ضيفاً بعد الهجرة وقبل بناء المسجد النبوي ، وحجرات زوجات الرسول ﷺ .

اشتهر بين الناس بكنيته « أبو أيوب الأنصاري » أما اسمه فهو خالد بن زيد النجّاري الخزرجي الأنصاري ، أحد سابقي الأنصار إلى الإسلام ، مضيف رسول الله ﷺ ، وتوضيح حياته في الصحفات التالية .

* * *

سري خبر خروج رسول الله ﷺ من مكة مع صاحبه الصديق أبي بكر مهاجرين إلى المدينة المنورة ، وما أن أن علم أهلها بقدومه حتى خرجوا جميعا لاستقباله وكل منهم يود مصافحته والسلام عليه ، أو على الأقل رؤيته والتطلع إليه ، والسماع منه والاستماع إليه .

لكن شخصيتنا كانت له فضيلة استضافة الرسول ﷺ في داره ، وذلك أن كل أنصاري كان يأخذ بزمام ناقة الرسول ﷺ ، وهو يقول لهم : « **خلوا سبيلها فإنها مأمورة** » ومرت الناقة على قوم وقوم وقوم حتى وصلت إلى مكان فسيح بجوار دار أبي أيوب الأنصاري ، فبركت ثم قامت ودارت بالمكان ثم بركت فيه مرة أخرى فنزل رسول الله ﷺ عنها فأخذ أبو أيوب رضي الله عنه متاع النبي ﷺ وأدخله بيته ، ثم دعا رسول الله ﷺ إلى داره .

كيف كانت حياة النبي ﷺ مع أبي أيوب رضي الله عنه وزوجته ، وما المدة التي مكثها ضيفاً عليهما ؟؟

* * *

كان منزل أبي أيوب رضي الله عنه مكونًا من طابقين ، فنزل رسول الله ﷺ في الطابق

الأرضى بعد أن أخلاه أبو أيوب رضي الله عنه الذي صعد وامرأته إلى الطابق العلوي وما كاد أبو أيوب يصعد إلى غرفته في الدور العلوي حتى ذهب منتفضاً ، فعجبت زوجته ، وسألته : ماذا بك ؟ فأجابها : ويحك ماذا صنعنا ؟! أيكون رسول الله ﷺ في الأسفل ونحن أعلى منه نمشي فوقه ، إن هذا لن يكون . ولم يناما ليلتهما هذه .

ولما أصبح الصباح ذهب أبو أيوب رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ وقال له : يا رسول الله ، والله ما غمض لي جفن أنا ولا أم أيوب . فسأل ﷺ : ومم ذاك ؟ يا أبا أيوب ؟ فقال : ذكرت أني على ظهر بيت أنت أسفله فخفت أن أتحرك فيتناثر عليك الغبار ويؤذيك تحركي ، وذكرت أيضاً أني أكون بينك وبين الوحي ، فقم يا رسول الله إلى الطابق الأعلى . فتبسم الرسول ﷺ وهو يقول : «**هوّن عليك يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا أن نكون في السفل ، لما يغشانا من الناس**» .

انصرف أبوأيوب إلى أن كانت ليلة باردة انكسر فيها وعاء الماء لأبي أيوب رضي الله عنه فخاف أن يتسرب الماء إلى أسفل على رسول الله ﷺ ، فقام مع زوجته بما يلتحفان به وأخذا ينشفان الماء ويجففانه ، ولما أصبح الصباح راح يلح على رسول الله ﷺ ، ويقول له : يا رسول الله إني أكره أن أكون فوقك ، ثم قص عليه ما كان من أمر الماء الذي أريق ، فاستجاب الرسول ﷺ لرجائه ، وانتقل إلى الطابق الأعلى .

***

مكث رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب رضي الله عنه سبعة أشهر حتى تم بناء المسجد النبوي ، وحوله حجرات أمهات المؤمنين .

في أثناء مدة الضيافة كان أبو أيوب نعم المضيف ، وبلغ من حبه وزوجته لرسول الله ﷺ أنهما عندما كانا يقدمان له الطعام كانا يتتبعا أثر أصابعه ﷺ فيأكلا من حيث أكل ، إلى أن كان يوم عاد إليهما الطعام كما هو لم يمس ، فصعد أبو أيوب رضي الله عنه ، واستفسر : يا رسول الله كنت ترسل بالطعام فأنظر فيه فإذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدي ، حتى إذا كان هذا الطعام الذي أرسلت به إليّ ، فنظرت فلم أر أثر أصابعك .

فقال رسول الله ﷺ : أجل إن فيه ثوماً ، فكرهت أن أكله من أجل الملك الذي يأتينا ، وأما أنتم فكلوه .

وفي المقابل كان رسول الله ﷺ يحب أبا أيوب رضي الله عنه حباً جعله يذهب إليه كلما احتاج إلى الطعام ، أو يدخل دار أبي أيوب كأنه منزله تماماً . وكان أبو أيوب رضي الله عنه يدخر لرسول الله ﷺ طعاماً ، فإذا أتاه تناوله ، وإن لم يأت أطعمه أهله .

وفي ذات يوم خرج أبوبكر الصديق رضي الله عنه في منتصف يوم شديد الحرارة إلى المسجد فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فسأله : يا أبابكر ما أخرجك هذه الساعة ؟ فقال أبوبكر رضي الله عنه : ما أخرجني إلا ما أجده من شدة الجوع . قال عمر رضي الله عنه : وأنا والله ما أخرجني غير ذلك .

وبينما وهما يتبادلان أطراف الحديث إذا خرج عليهما رسول الله ﷺ ، فسألهما : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ فقالا : والله ما أخرجنا يا رسول الله إلا ما نجده من شدة الجوع . فقال ﷺ : وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني غير ذلك . فانطلقوا فأتوا باب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

خرجت إليهم أم أيوب مرحبة وهي تقول : مرحباً نبى الله ومن معه ، فسألها ﷺ : أين أبو أيوب ؟ فأجابت يعمل في نخل له ، وهو قريب منا .

وفي هذه الأثناء سمع أبو أيوب رضي الله عنه سؤال النبي ﷺ عنه ، فأقبل مسرعاً وهو يقول : مرحباً برسول الله وبمن معه . ثم قال : يا نبي الله ، ليس هذا بالوقت الذي كنت تجيء فيه ؟ فقال النبي ﷺ : صدقت . وفهم أبو أيوب رضي الله عنه ما الذي أتى برسول الله ﷺ وصاحبيه ، فانطلق إلى نخيله فقطع منها سباطة فيها تمر ورطب وبُسر [1] . فقال النبي ﷺ : ما أردت هذا . إلا جنيت لنا من تمره ؟ فقال أبو أيوب : يا رسول الله ، أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبُسره ، ولأذبحن لك مع هذا . فقال النبي ﷺ : إن ذبحت فلا تذبحن ذات لبن .

فقام أبو أيوب رضي الله عنه ، وأخذ جدياً فذبحه وقال لامرأته : اعجني واخبزي لنا . . ثم أخذ نصف الجدي وطبخه ، وشوي نصفه الآخر ، ثم أتى باللحم والخبز أمام رسول الله ﷺ وصاحبيه ، فأخذ الرسول ﷺ جزءاً من اللحم ووضعه في رغيف وأمر أبا أيوب رضي الله عنه أن يذهب به إلى فاطمة ، لأنها لم تصب مثل هذا الطعام منذ أيام

---

(1) التمر هو اليابس من تمر النخيل بعد نضجه ، والرطب هو ثمر النخيل إذا انضج ، والبُسْر هو تمر النخيل قبل نضجه .

وبعد أن أكل الجميع ، وحمدوا الله تعالى . قال الرسول ﷺ : خبز ولحم وتمر وبسر ورطب ، ثم دمعت عيناه وهو يكمل : والذي نفسي بيده إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة .

فعجب أبوبكر وعمر رضي الله عنهما ، أمثل هذا الطعام البسيط يعد نعيمًا يسألون عنه ؟!! ثم قال النبي ﷺ لأبي أيوب رضي الله عنه : ائتنا غداً . فلما أتاه أعطاه ﷺ جارية صغيرة . وقال له : يا أبا أيوب ، استوصي بها خيراً ، فإنا لم نر إلا خيراً ما دامت عندنا . فلما خرج الرسول ﷺ .

وخرج أبو أيوب رضي الله عنه ومعه الجارية من عند رسول الله ﷺ ، فلما دخل بيته قال لزوجته : والله لا أجد لوصية رسول الله ﷺ خيراً من عتق هذه الجارية لوجه الله تعالى . . وأعتقها .

وإذا كان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه محباً لرسول الله ﷺ ، فإنه كذلك كان محباً لآل بيته وأهله ، يدل على ذلك أنه عندما حدثت واقعة الأفك [1] واتُهمت السيدة عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ في عرضها ، قالت أم أيوب لزوجها : يا أبا أيوب ، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلي وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . فقال أبو أيوب رضي الله عنه : فعائشة والله خير منك .

***

منذ أن بايع أبو أيوب رضي الله عنه رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله تعالى ، ظل يجاهد معه ، ويشهد المشاهد حتى انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه .

توالى عهد الخلفاء الراشدين ، وأبو أيوب رضي الله عنه البطل المجاهد فقد كان حب الجهاد يجري فيه جريان الدم في العروق ، والماء في النهر ، إنه رجل يحيا بالجهاد في سبيل الله تعالى ، ولهذا ظل يحمل السيف حتى بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وكان يردد دائماً قول الله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة : 41] .

---

(1) الإفك : الكذب العظيم . أو أشنع الكذب ، وحادثة الإفك هي اتهام السيدة عائشة رضي الله عنها مع صفوان بن المعطل السلمي ، والذي اشاع ذلك وروّج له رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول .

ويقول : إني أجد نفسي خفيفاً أو ثقيلاً ، ولذلك فالجهاد على أي الحالين مأمور به ، ولم تفته غزوة في سبيل الله ، ولم يتخلف عن موطن جهاد ، بل ما أن يدعو داعي الجهاد إلا وكان متقدما الصفوف ، حاملاً سيفه يرجو لقاء ربه شهيداً . حضر الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعثمان رضي الله عنه ، شهد مع على بن أبي طالب رضي الله عنه قتال الخوارج بالنّهرَوَان [1]، ولم يتخلف إلا عن غزوة واحدة عندما كان يقود الجيش المسلم شاب أقل منه سنا ، ويبدو أن أبا أيوب كان معترضاً على إمارته ، ولكنه بعد ذلك ندم على فوات هذا المشهد وذلك الفضل، ويقول : « **ما ضرني من استعمل عليّ** » .

إنه يريد أن يقول : لا يهم من يكون القائد ، بقدر ما يهم حضور المعركة ، ونوال الشرف ، وحيازة الفضل .

عندما نادى منادي الجهاد إلى القسطنطينية سنة اثنين وخمسين للهجرة في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، لبى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه النداء ، وحمل سيفه ، وركب فرسه يرجو أن يكون ممن يختصهم الله تعالى بالشهادة .

وصل الجيش بقيادة يزيد بن معاوية إلى أسوار القسطنطينية ، وظل يقاتل ، فاستعصت عليه ، وفي أثناء القتال مرض أبو أيوب رضي الله عنه أو أصيب ، فلزم الفراش فجاءه قائد الجيش يزيد بن معاوية يعوده ، فسأله : يا أبا أيوب ، ما حاجتك؟ قال : حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ، وتوغل [2] في أرض العدو إلى أقصى ما تستطيع ، ثم ادفني وارجع ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

قام يزيد وأخذ كتيبة من أبطال المسلمين ، وتوغلوا في أرض العدو ليلاً ، حتى وصلوا أسوار المدينة ، وتحت أسوارها دفنوه ، ثم عادوا . . .

وفي الصباح قال جند الروم للمسلمين : لقد كان لكم في الليلة الماضية شأن فما هو ؟ أجابوا : هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا ، وأقدمهم إسلاماً ، وقد دفناه حيث قد رأيتم وعلمتم . ووالله لئن نبش قبره لن يضرب لكم ناقوس [3] مادمت لنا مملكة .

---

(1) النهْرَوان : موضع قاتل فيه على بن أبي طالب رضي الله عنه الخوارج سنة ثمان وثلاثين للهجرة .

(2) توغل : تعمق .

(3) الناقوس : جرس الكنيسة يُنادى به للصلاة .

وقبره رضي الله عنه ما زال هناك ، ولكن القسطنطينية الآن بلاد إسلامية بعد أن فتحها محمد الفاتح ، وتسمى الآن « اسطنبول » وهي في دولة تركيا .

رحم الله أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه الرجل الذي عاش محباً للرسول ﷺ وأهل بيته ، ومحباً للجهاد حتى نال شرف الشهادة في سبيل الله تعالى ، فهنيئاً له رفقته مع النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

*** من فضائل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .**

(1) روى عن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أخذ من لحية رسول الله ﷺ شيئاً ، فقال له : « **لا يصيبك السوء يا أبا أيوب** » رواه البيهقي في شعب الإيمان .

***

(12) ذو البجـــادين رضي الله عنه

نسمع عن ذات النطاقين ، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها ، ولكن من هو ذو البجادين ؟ وما سبب هذا اللقب ؟ وما فضله ؟

كيف أسلم ؟ وماذا نعرف عن حياته ؟

هيا معاً نتعرف على إجابات هذه الأسئلة .

***

لا نعلم عنه الكثير سوى إسلامه ، وهجرته إلى الله تعالى ، وجهاده ثم وفاته ودعاء الرسول ﷺ له بالرضا ، والنزول في قبره ودفنه بيديه الشريفتين ، حتى أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تمنى أن يكون هو صاحب هذا القبر ، رغم أنه أسبق منه إلى الإسلام .

تبدأ حياة هذا الصحابي الجليل بولادته في قبيلة « مُزَيْنَة » لأبوين فقيرين ، فأبوه عبد نَهَم المزني الذي سمي وليده بعبد العزى ، تيمّنًا [1] بالوثن المعبود من دون الله تعالى . وما لبث الوالد أن مات وترك طفله للفقر واليتم ، غير أنه كان للطفل عم ثري ، أخذه ورباه كما يربي الوالد ولده .

نشأ عبد العزى بن عبد نَهَم شاباً عاقلاً رافضاً لكل ما حوله من أوثان وأصنام تُعبد من دون الله كارهاً لعادات الجاهلية البغيضة ، ويود أن ينتشله أحد من هذا الجو العفن الآس[2] الذي يخنق روح الفضيلة ويكمم أنفاس الحق ، ويحجب إضاءة النور . يود أن يجد هذا الشخص ، فيذهب إليه ، فيترك دنياه وأهله وعشيرته .

وأراد الله تعالى له ذلك ، فسمع الفتى بوجود رجل في المدينة المنورة ، مكي الأصل ، قرشي القبيلة ، يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإلى نبذ الأوثان والأصنام ، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . فصادف ذلك هوى في نفسه ، فآمن به دون أن يراه واتبع النور الذي جاء به .

---

(1) تيمناً : تبركاً .

(2) الآس : متغير فاسد

كتم عبد العزى بن نَهَمَ المزني اسلامه عن قومه في أول أمره خاصة عمه الذي ربّاه وتولى الإنفاق عليه حتى شب ، ولكن نما [1] إلى علم العم أن عبد العزى قد صبأ واتبع الدين الذي يدين به أهل يثرب ، وصار من اتباع ذلك الرجل المكي محمد ابن عبد الله الذي غيّر دين الآباء والأجداد ، وجعل الألهة إلهاً واحداً .

استدعاه عمه ، ونحسب أن حواراً كهذا دار بينهما .

العم : يا عبد العزى ، بلغني أنك قد صبأت ، وبدلت دين الأباء والأجداد بدين اليثربيين .

عبد العزى : ما صبأت يا عماه ، ولكني أسلمت لله رب العالمين .

العم : يا ابن أخي ، عد إلى صوابك ، فإن دين الأباء والأجداد أحق بالاتباع .

عبد العزى : لا يا عم ، فالحق أولى بالاتباع ، إن ما تدعون إلى عبادته أصنام من حجارة صماء أو من أخشاب ميته لا تنفع ولا تضر . .

العم (مقاطعاً بغضب) : كف عن هذا القول ، ولا تسب الألهة ، وعد إلى رشدك حتى لا تحرم من النعيم الذي تعيش فيه .

عبد العزى : من العبث أن نرى النور ولا نتبعه ، وأي نعيم هذا الذي نعيشه ؟ وأي حياة هذه التي نحياها ؟ إن النعيم الحق هو نعيم الآخرة الذي لا يزول ، وإن الحياة الحقة مع رب العالمين الواحد الأحد .

العم : إذن أنت مصر على موقفك ، واللات والعزى ، وحق الآلهة لاجردنّك من النعيم الذي منحتك إياه فتعود إلى فقرك القديم ، ولننظر أي نعيم يقدمه لك الدين الجديد .

انصرف عبد العزى من أمام عمه ، وقرر الهجرة إلى المدينة ، لينضم إلى قافلة المسلمين المباركة .

***

خرج عبد العزى من بيته قاصداً مدينة الرسول ﷺ ، فعلم به عمه فمنعه من الذهاب ، وضيّق عليه الخناق ، وتكررت محاولات عبد العزى حتى أنه خرج متخفياً ليس عليه سوى بجاد يغطي به جسده ، والبجاد هو الكساء الغليظ . لمحه

---

(1) نما إلى علمه : وصله .

بعض قومه ، فظنوه ذاهباً لقضاء حاجة له ، خاصة وأنه ليس معه ما يلزم السفر ، وقيل إن عمه جرده من كل شيء ، ولم يترك له غير هذا البجاد يستر به جسده بعد أن علم عزمه وتصميمه على الخروج والذهاب إلى يثرب .

واصل عبد العزى فراره بدينه ، وهجرته إلى الله تعالى ورسوله ﷺ حتى إذا ما كان قريباً من المدينة المنورة ، هيأ نفسه ، وشق بجاده نصفين ، جعل أحدهما إزاراً « أي لف به النصف الأسفل من بدنه » والآخر ارتداه ولف به النصف الأعلى من بدنه ، ثم مضى في طريقه إلى المدينة المنورة ، بل إلى مسجد الرسول ﷺ ، يسلم بين يديه ، ويقابله فتكتحل عيناه برؤية وجهه الكريم .

أصبح الصباح ، وأذن بلال رضي الله عنه لصلاة الفجر ، ولما قُضيت الصلاة أقبل الرسول ﷺ يتفحص [1] وجوه القوم ، فوقع بصره على هذا الشاب ، فسأله من يكون ؟ فأجابه : أنا عبد العزى بن عبد نهم المُزني . فقال له النبي ﷺ : أنت عبد الله . وأخذ عبد الله المزني رضي الله عنه يقص في المسجد حكايته ، كيف نشأ ؟ وكيف أسلم ، وماذا جرى له مع عمه ؟ وكيف جرده من كل شيء ؟

كان الصحابة يستمعون لهذه القصة مع الرسول ﷺ ، ولذلك فقد لقبوه بعبد الله ذي البجادين ، فصار اسمه عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه .

***

كان عبد الله ذو البجادين كثير الذكر والتسبيح لله تعالى يجأر [2] بالدعاء في كل وقت وحين ، ولسانه دائماً رطباً بذكر الله بصوت مرتفع ، حتى أن هذا الأمر أثار عجب بعض الصحابة ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي سأل : أمراء هو ؟!! لا إنه ليس بالمرائي ، بل هو أحد الأوّاهين [3] ، رقيق القلب ، كثير الدعاء ، يُعلم أنه قد فاتته مشاهد كثيرة مع رسول الله ﷺ ، وسبقه الكثيرون إلى شرف الصحبة والجهاد ، ويود تعويض هذا ، وكانت نفسه تتوق [4] إلى الجهاد والشهادة ، ولذلك فما فاتته غزوة بعد هجرته حتى جاءت غزوة تبوك .

---

(1) يتفحص : يبالغ في الفحص والبحث .

(2) يجأر : يرفع صوته متضرعاً مستغيثاً .

(3) الأوّاهين : جمع أوّاه وهو كثير التأوه من خشية الله ، أو الرقيق القلب .

(4) تتوق : تشتاق .

في رجب من السنة التاسعة للهجرة كانت غزوة تبوك ، وكان عبد الله ذو البجادين في الجيش يطلب الشهادة ، وفي طريق العودة مرض رضي الله عنه ، واشتد به المرض .

في أحد الليالي قام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فرأى شعلة من نار في ناحية من نواحي المعسكر فاتبعها حتى وصل إليها ، لينظر أي أمر يكون ، فإذا هو برسول الله ﷺ وصاحبيه الصديق والفاروق رضي الله عنهما ، وإذا عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه قد مات وقد حفروا له ليدفنوه ، ورسول الله ﷺ قد نزل الحفرة والصديق والفاروق رضي الله عنهما يدليانه إليه وهو يقول لهما : أدنيا إليّ أخاكما .

بعد أن فرغ الرسول ﷺ من دفنه دعا له بخير حتى أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تمني أن يكون هو صاحب هذا القبر وهذه الحفرة ، لما رأى وسمع من دعاء النبي ﷺ هذا غير شرف أنه دفنه بيديه الشريفتين .

رضي الله تعالى عن عبد الله ذي البجادين ، أحد الأواهين المهاجرين إلى الله تعالى ورسوله ﷺ .

* * *

(13) عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه

لا أحد يجهل أبا جهل ، فهو فرعون هذه الأمة ، وكبير معاندي قريش ومشركيها ، وجبار مكة الأكبر ، وزعيم الشرك الأول ، وهكذا كان ابنه عكرمة في أول حياته ، فقد سار على شاكلة [1] أبيه في العداء للإسلام والمسلمين ومحاربتهما وحياة عكرمة رضي الله عنه قبل إسلامه تختلف عن حياته بعد اسلامه ، فقبل اسلامه نستطيع أن نقول أنه ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : 34] أو المثل العربي القائل « من شابه أباه فما ظلم » فعكرمة ـ كما أسلفنا ـ نشأ في بيت زعيم الشرك الأكبر ، وتشرب مبادئ عداوة الإسلام والمسلمين ، ومحاربتهما بكل الطرق والوسائل ، وبكل ما أوتي من قوة ، إنه كغيره يدافع عن مصالح يخشى عليها الضياع ، وزعامة يخاف عليها الزوال . . وبعد إسلامه انعكس الوضع تماماً حتى أننا نستطيع أن نقول أنه ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [الروم : 19] .

ضرب أروع الأمثلة في البطولة والإيثار قبل أن يرزقه الله الشهادة ، وحياة كهذه لجديرة بأن نتعرف عليها وعلى صاحبها .

* * *

نشأ عكرمة ، وشب في مكة المكرمة ، وسمع كغيره عن الدين الجديد الذي جاء به محمد بن عبد الله ، وعن هؤلاء الذين اتبعوه ، وكغيره من أهل مكة شارك في جماعات تعذيب هؤلاء الذين أسلموا عساهم أن يعودوا إلى دين اللات والعُزّى [2] ولكن لم يعد أحد .

وبعد ثلاث عشرة سنة قضاها رسول الله ﷺ في مكة المكرمة داعيا إلى الله تعالى بإذنه ، أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة ، فهاجروا إليها وتركوا أموالهم وديارهم بمكة ، وفي العام الثاني للهجرة كانت موقعة بدر الكبري فقد قاد أبو جهل عمرو بن هشام جيش المشركين ، وأقسم باللات والعزى ليقاتلن محمداً وأصحابه ، حتى لا يعودوا إلى مهاجمة قوافلهم مرة أخرى . وكان في مقدمة جيش المشركين عكرمة الذي شهد بعينيه مصرع أبيه الطاغية ، فازداد عداؤه للإسلام

(1) شاكلة : السجيّة والطبع .

(2) اللات والعزى : صنمان من أصنام العرب .

والمسلمين ، فقد كان العداء أولاً بسبب الخوف على المصالح ، أما الآن فقد أضيف إليه ثأر أبيه الذي يحب أن يأخذ به ، ولذلك فعند رجوع جيش مكة مهزوماً بعد أيام ذهب عكرمة مع بعض إخوانه إلى أبي سفيان بن حرب الذي آلت إليه زعامة مكة ، وكلموه مع أصحاب أموال القافلة التي كانت بسببها موقعة بدر ، فقالوا وهم يحرضون : يا معشر قريش ، إن محمداً قد قتل خياركم يوم بدر ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا .

فاتفقوا على الخروج نحو المدينة ، فكانت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة ، وكان عكرمة قائد ميسرة الجيش .

وفي غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة خرج عكرمة مع جيش الأحزاب لاستئصال شأفة المسلمين [1] ، فوجدوا الخندق محفوراً أمامهم حول المدينة يمنع دخولهم ، فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها . ولم يجدوا أمامهم إلا المحاصرة التي طالت و نفد صبر بعض شباب المشركين ومنهم عكرمة ، فقروا اقتحام الخندق من أضيق مكان فيه ، وانتهت هذه المغامرة بمقتل عمرو بن وُدّ أحد أبطال المشركين وشجعانهم على يد البطل المغوار [2] على بن أبي طالب ، ثمّ فرار عكرمة رضي الله عنه بعد أن ألقى رمحه .

وتمضي سنوات حتى يكون فتح مكة في العام الثامن للهجرة ، وهو عام فتح ونصر وبركة للمسلمين ولعكرمة رضي الله عنه أيضاً .

* * *

دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً ، لأن قريش رأت أنها لا قبل لها بحربه وحرب أصحابه ، ووقف أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه يعلن للناس أن رسول الله ﷺ جاء بعشرة آلاف مقاتل ، وأنه من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو أمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فاستبشر أهل مكة بهذا الأمان إلا بعض نفر فيهم عكرمة وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحماس بن قيس الذي قال لزوجته وهو خارج لقتال المسلمين : إني لأرجو أن أتيك ببعض أصحاب محمد خدماً .

---

(1) استئصال شأفة المسلمين : إبادتهم وإزالتهم تماماً .

(2) المغوار : المقاتل الشجاع ، كثير الغارات على الأعداء .

خرج هؤلاء ومن معهم من الشباب الطائش الذين لا يقدرون الأمور حق قدرها وتوجهوا إلى أحد نواحي مكة، وهناك في مكان يسمي « الخندمة » قابلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بفرسانه، فقاتلهم حتى أسروا منهم اثني عشر رجلاً، وفر عكرمة وصفوان وسهيل وحماس الذي دخل على زوجته وهو يقول : اغلقي عليّ الباب . فقالت له ساخرة : وأين ما كنت تعدني به من الخدم ؟ فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة ... يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة [1] ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وفر عكرمة رضي الله عنه إلى اليمن بعد أن علم أن رسول الله ﷺ أهدر دمه، لكثرة ايذائه، ولكن زوجته الوفيه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ابنة عمه وكانت قد أسلمت، ذهبت إلى رسول الله ﷺ واستأمنت له، فأمّنه .

في أثناء ذلك كان عكرمة رضي الله عنه في طريقه إلى اليمن، وقد ركب إحدي السفن، فقال قائد السفينة ـ وكان رجلاً مسلماً ـ اخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً فسأل عكرمة رضي الله عنه : أي شيء أقول ؟ قال : قل لا إلا إلا الله، فقال عكرمة واعجباه ! فما هربت إلا من هذا فادركته زوجته على هذا النحو، ونادت عليه : يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، فلا تهلك نفسك، فعاد معها بعد أن علم أنها قد أستأمنت له رسول الله ﷺ .

***

وفي أثناء عودة عكرمة رضي الله عنه إلى مكة المكرمة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت .

ولما دخل عكرمة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ قال له : مرحباً بالراكب المهاجر . فسُر عكرمة رضي الله عنه سروراً عظيماً، ونوّر الله بصيرته، وأزال ما على عينيه من غشاوة وحل الإيمان على قلبه، فبادر النبي ﷺ بقوله : إن أم حكيم اخبرتني أنك قد أمنتني فأجابه : صدقت، فأنت آمن، فقال عكرمة رضي الله عنه : إلام تدعوا يا محمد . قال ﷺ :

(1) الغمغمة : أصوات غير مفهومة .

ادعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، ثم أخذ يعد له خصال الإسلام .

فقال عكرمة رضي الله عنه : والله ما دعوت إلا إلى الحق ، وأمر حسن جميل ، وأنت والله أصدقنا حديثاً وأبرّنا براً ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فسُر بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال عكرمة : يا رسول الله ، علمني خير شيء أقوله . قال : تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فقال عكرمة رضي الله عنه : ثم ماذا ؟ قال : تقول ، أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر . فقال عكرمة رضي الله عنه ذلك .

ثم بشره رسول الله ﷺ قائلاً : يا عكرمة ، لا تسألني اليوم شيئاً أعطيته أحد إلا أعطيتكه . ولم يطلب عكرمة رضي الله عنه شيئاً من الدنيا ، إنما نظر في حياته السابقة ، وعلم مدى حقارتها ، ومدى ما ارتكبه في حق الإسلام ورسوله ورجاله ، ولذلك سأل النبي ﷺ أن يستغفر له كل عداوة عاداها له ، أو مسير سار فيه لحرب الإسلام ، أو موقع لقي فيه النبي ﷺ محارباً معادياً ، أو مقام قام فيه يريد إظهار الشرك ، أو أي كلام قاله في وجهه النبي ﷺ أو في غيبته . فدعا له النبي ﷺ : اللهم اغفر له كل عداوة عاداينها ، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك إطفاء نورك ، واغفر له ما نال مني من عرض في وجهي أو أنا غائب عنه . فتهلل وجه عكرمة رضي الله عنه بالبشر والسروروهو يقول : رضيت يارسول الله ، رضيت يا رسول الله . والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصّد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أقاتله في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله . . وتنقلب حياة عكرمة رضي الله عنه رأساً على عقب بعد إسلامه ، أو قد بدأت حياته الحقيقية مع الإسلام ، ودخول النور قلبه ، فهو الآن قد انضم إلى قافلة أهل الإيمان ، وأصبح جندياً من جنود الإسلام الشجعان ، وبطلاً من أبطاله البواسل .

***

ولأن عكرمة رضي الله عنه رجل فاضل ، ورأى فيه رسول الله ﷺ البر والتقوى والأمانة فقد استعمله على صدقات هوازن ، يأخذها من أغنيائهم ، ويردها على فقرائهم ، ونهى أصحابه أن يقولوا عكرمة بن أبي جهل ، بل عكرمة بن عمرو بن هشام .

بعد وفاة الرسول ﷺ ، وارتداد قبائل من العرب سيّر أبوبكر الصديق رضي الله عنه الجيوش لحربهم وإعادتهم إلى حديقة الإسلام ، فكان عكرمة قائداً لأحد الجيوش التي توجهت لقتال مسيلمة الكذاب ، ثم أرسله الصديق رضي الله عنه على رأس جيش لقتال أهل عمان الذين ارتدوا فكتب الله تعالى له النصر ، وبعد انتهاء حروب الردة سار عكرمة رضي الله عنه إلى بلاد الشام مجاهداً ، وقبل خروجه عسكر الجيش بالجرف[1] على مقربة من المدينة المنورة ، فذهب الصديق رضي الله عنه يستعرض الجيش ويتفقد أحواله ، فإذا هو بخباء[2] عظيم حوله ثمانية أفراس ، ورماح وسيوف ودرع ، فسار إليه ، فإذا هو خباء عكرمة رضي الله عنه إنه لم ينس عهده مع الله ورسوله أن ينفق في سبيل الله أضعاف ما كان ينفقه في الصد عن سبيل الله .

سلم عليه الصديق رضي الله عنه ، وعرض عليه المعونة من بيت المال ، فقال عكرمة رضي الله عنه : لا حاجة لي بها يا خليفة رسول الله إن معي ألف دينار .

واصل عكرمة رضي الله عنه جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله حتى كانت معركة اليرموك بين المسلمين والروم ، وفيها أبلي عكرمة رضي الله عنه بلاءً حسناً قبل استشهاده ، بل أعطانا درساً في الشجاعة والإيثار قلما نجد له نظير .

***

اتسعت الفتوحات في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتعددت اللقاءات بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس والروم ، وإحدى هذه اللقاءات كانت موقعة اليرموك . وفي كل هذه الفتوحات والمواطن كان عكرمة رضي الله عنه الفارس البطل المجاهد الذي لم ينس عهده مع رسول الله ﷺ يوم أن وضع يده في يده ، وقال له : أشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر ، وكذلك لم ينس تعهده بأن يقاتل في سبيل الله أضعاف ما كان يقاتل في الصد عنه . .

بدأت معركة اليرموك ، وكان عكرمة رضي الله عنه قائداً لأحد سريا الجيش ، واشتد الكرب على المسلمين ، فقد كانت أعداد الروم تفوقهم بكثير ، وهنا ينزل عكرمة رضي الله عنه عن فرسه ، ويكسر غمد[3] سيفه ، ويتوغل في صفوف الأعداء يضرب

(1) الجرف : موضع على بعد ميلين من المدينة المنورة .
(2) الخباء : الخيمة من الصوف .
(3) الغمد : غلاف السيف .

ذات اليمين وذات اليسار ثم يعود إلى المسلمين فيقول له أحدهم مشفقاً عليه : اتق الله ، وارفق بنفسك ، فإن قتلت سيكون قتلك شديداً على المسلمين . فيقول عكرمة رضي الله عنه وهو يصيح : إليكم عني ، فقد كنت أجاهد بنفسي مع اللات والعزى فأبذلها لها أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟!! لا والله لايكون أبداً . ثم التفت إلى الروم وهو يقول : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن ، وأفر منكم الآن .

ثم نادي في صفوف المسلمين : من يبايع على الموت ؟!

فخرجت كوكبة من الفرسان الأبطال وبايعوه ، منهم عمه الحارث بن هشام ، وابنه عمرو بن عكرمة ، وضرار بن الأزور ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، واكتمل عددهم أربعمائة ، فانطلقوا يحصدون رقاب الروم ، مقبلين غير مدبرين حتى انتهت المعركة بنصر مؤزر(1) للمسلمين ، وسقط من بين شهداء المسلمين عكرمة وابنةعمرو وعمه الحارث وعياش بن ربيعة ، وفي الرمق الأخير مرّ عليهم أحد المسلمين فطلب منه الحارث بن هشام جرعة ماء يشربها فجاءة الرجل بالماء ، فلما قربه من فمه نظر إليه عكرمة ، فقال الحارث للرجل : ادفعه له فلما أخذه عكرمة رضي الله عنه وقربه من فمه نظر إليه عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه ، أو سهيل بن عمرو رضي الله عنه فقال عكرمة رضي الله عنه للرجل : ادفعه له ، فلما وصل الماء إليه كان قد مات ، فعاد الرجل بالماء إلى عكرمة ، فوجده قد مات ، فعاد به إلى الحارث ، فوجده قد مات أيضاً .

واستشهد الثلاثة ، وكل منهم يؤثر غيره بالماء على نفسه ، رضي الله عنهم أجمعين .

*** من فضائل عكرمة بن عمرو رضي الله عنه .**

(1) عن عكرمة بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ يوم جئته « **مرحبا بالراكب المهاجر** » رواه الترمذي .

* * *

(1) مؤزر : شديد وقوي .

(14) زيد بن حارثة

« زيد بن محمد » ، هكذا كان اسمه أولاً ، ثم عاد إليه اسمه الأصلي « زيد بن حارثة » بعد إبطال عادة التبني ، كان رسول الله ﷺ يحبه حبًا شديداً حتى أطلق عليه « حبّ رسول الله ﷺ » بل إنه الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم دون غيره من الصحابة وما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا وأمره عليها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

رباه الرسول ﷺ في بيته وهو طفل صغير ، رغم أنه ليس مكياً أو قرشياً كيف ذلك ؟ وممن يكون ؟ وما الذي أتى به مكة ؟ وكيف وصل إلى بيت الرسول ﷺ ؟ وما فضله وشرفه ؟ كيف عاش ؟ وكيف نال هذا الحب العظيم ؟ وكيف مضى إلى ربه راضياً مرضياً .

إجابة هذه الأسئلة وغيرها نجدها في قصة حياة هذا الصحابي الجليل . .

* * *

كان عُمْر زيد حوالي ثماني سنوات يوم خرجت به أمه سُعْدى بنت ثعلبه لزيارة أهلها ، وفي أثناء إقامتها أغارت قبيلة على أهلها ، ونهبت أموالها وإبلها ، وسبت غلمانها ، وكان من جملة السبي زيد بن حارثة ، ذلك الطفل الصغير الذي يدرك ويعي ما يحدث .

تناقلت الأيدي زيداً حتى أوصلته إلى أحد أسواق مكة ، وبيع هناك لأحد أشرافها وهو حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخ السيدة خديجة زوجة محمد بن عبد الله ﷺ وكان ذلك قبل البعثة النبوية .

ذهب حكيم إلى عمته خديجة ومعه الغلام ، وقال لها : يا عمة ، هذا غلام اشتريته بالأمس ، ورأيت فيه علامات النجابة[1] ، وإمارات الذكاء ، فخذيه هو هدية لك .

قبلت السيدة الفاضلة هدية ابن أخيها ، ولما رأت في الغلام الصغير ما يدل على سمو أخلاقه ، ورجاحة عقله وهبته لزوجها محمد بن عبد الله ﷺ . . عاش

---

(1) النجابة : النباهة والأفضلية على المثل .

زيد مع هذه الأسرة العظيمة، وعوضه حنان السيدة وزوجها عن حنان أبويه ، بل أكثر ، فقد منحاه الحب والعطف، وحسن المعاملة التي جعلته يشعر كأنه ابن لهما، وليس خادماً عندهما، الأمر الذي جعله يفضلهما على أبويه .

* * *

ما أن علم حارثة بن شراحبيل الكلبي بفقد ولده زيد حتى بدأ البحث عنه في كل جزيرة العرب ، ويود لو وجده لافتداه بكل ما يملك .

لما حضر موسم الحج ذهب إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة أناس من قبيلة « كلْب» قبيلة زيد، ولما رأه ورأهم ، عرفوه وعرفهم ، حتى إذا ما انقضى الحج انطلقوا إلى أبيه وأعلموه بمكان فقيده، وعند من يكون ، وحين سمع الرجل هذا الخبر السعيد طار مع أخيه كعب إلى مكة المكرمة ومعما المال لافتداء زيد والعودة به إلى دياره حيث الأم المكلومة [1] والأب الحزين .

وصل الأب والعم إلى مكة المكرمة ، وعلما أن ابنهما في بيت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن سيد قريش ، فاستبشرا خيراً ، وأيقنا أنهما سيعودان بابنهما، فذهبا إليه وقالا له : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه تفكون العاني [2] وتطعمون الأسير، جئناك في ابن لنا عندك، فامنن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه . فقال محمد بن عبد الله ﷺ : من هو ؟ قالا : زيد ابن حارثة ، فارتسمت ابتسامة على وجه محمد بن عبد الله ﷺ وهو يقول لهما فهلاّ غير ذلك ؟ قالا : وما هو ؟ قال : ادعوه وخيّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فما أنا بالذي أختار على من اختارني أحد . وأشرق وجه الرجلين ، فما كان في حسبانهما هذا الشرف وهذا الكرم من ابن سيد قومه محمد بن عبد الله ﷺ ، وما كانا يشكان لحظة أن ابنهما سيختار عليهما أحد .

قال الرجلان : لقد أحسنت وبالغت في عدلك وانصافك ، وأحسنت إلينا في فدائه . فدعا محمد ﷺ غلامه زيداً ، وقال له وهو يشير إلى الرجلين : هل تعرف هؤلاء ؟ فأجابه : نعم هذا أبي ، وهذا عمي .

---

(1) المكلومة : الجريحة .

(2) تفكون العاني : تطلقون الأسير .

فخيره قائلاً : فإنا من قد عرفت ، ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو إخترهما . . ولم يتردد الغلام زيد وهو يجيب : ما أريدهما ، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني مكان الأب والعم .

وهنا يتعجب الرجلان ، وترتسم الدهشة على وجهيهما وهما يقولان : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟!!

فأجابهما الغلام على الفور وهو ينضم ناحية محمد بن عبد الله ﷺ ويتعلق به : نعم ، لقد رأيت من هذا الرجل شيئًا ، وما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . هنا يزداد تعجب الرجلين ، إذ كيف يرفض زيد العودة إلى دياره وأهله وحريته ، ويفضّل دياراً غريبة ، وقوماً غرباء ولا يدريان أنه في نعمة وعز وأهل خير من أهله ، وديار خير من دياره .

لما قال زيد ذلك تهلل وجه محمد بن عبد الله ﷺ بالبشر ، وأخذ بيد زيد وانطلق به إلى الكعبة ، وهناك عند الحجر حيث يجلس بعض السادة ، نادى : « **يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني ، يرثني وأرثه** » .

ولما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفسيهما واطمأنا إلى أن ابنهما في أيد أمينة ، وأهل أخيار ، وقلوب رحيمة .

ومن يومها صار اسم زيد « زيد بن محمد » فلقد كان التبني مباحاً في ذلك الوقت حتى جاء الإسلام وأبطل هذه العادة كما سيأتي .

***

بعد سنوات قليلة من هذا المشهد هبط الوحي الأمين جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله ﷺ ، وأبلغه أنه رسول رب العالمين إلى الناس كافة ، وعليه أن ينذر عشيرته الأقربين . وأطاع الرسول ﷺ أمر ربه ، وكان أول من أمن به زوجته الفاضلة السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ثم ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم زيد بن حارثة رضي الله عنه وكانا غلامين آنئذ .

عاصر زيد رضي الله عنه بداية الدعوة ومراحلها الأولى ، والصعاب التي لاقت نبي الله ﷺ ، وصحابته رضي الله عنهم ، ولم يزدد زيد رضي الله عنه إلا حباً لله تعالى

ورسوله، ولم يترك رسول الله ﷺ لحظة واحدة ، بل كان يلازمه كظله حتى أطلق عليه « زيد الحب » لشدة حب رسول الله ﷺ له .

مرت على الدعوة الإسلامية ثلاث عشرة سنة بمكة المكرمة ، لاقى فيها المسلمون الأوائل ما لاقوة من تعذيب واضطهاد ، حتى أذن الله تعالى ورسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر زيد مع من هاجر ، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ وأسد الله تعالى . . وبدأت مرحلة جديدة في حياة الدعوة الإسلامية وفي حياة زيد رضي الله عنه أيضاً .

***

شب زيد رضي الله عنه شجاعاً مدافعاً عن دين الله ، مجاهداً في سبيله، وعندما قامت المعارك بين قوى الشر، وقوى الخير كان المحارب بجوار النبي ﷺ ، والأمير في السرايا ، وشهد غزوة بدر وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وعندما انتصر المسلمون في معركة بدر الكبرى أرسله الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة يبشر أهلها بالنصر .

وما أرسله الرسول ﷺ في سرية إلا وأمره عليهم .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها « ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم » ويقول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه « **غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات ، ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله ﷺ** » .

وبلغ من حب رسول الله ﷺ لزيد رضي الله عنه أنه كان يشتاق إليه إذا غاب ويفرح إذا عاد ، ويهش [1] للقائه حين يلقاه ، وقد زوّجه من مولاته وحاضنته أم أيمن رضي الله عنها فولدت له أسامة الذي نشأ في كنف [2] رسول الله ﷺ كأبيه ، وصار أسامة بن زيد رضي الله عنهما الحبّ بن الحبّ .

وأراد الله تعالى لزيد شرفاً أعلى ، ومكانة أكثر سمواً ، وذكراً يتردد إلى يوم القيامة فجعله سبباً لابطال عادة التبني التي كانت معروفة عند العرب في ذلك الوقت .

***

(1) يهش للقائه : ينشرح صدره للقائه .
(2) كنف : جوار وجانب .

كان التبني عادة جاهلية معروفة عند العرب وهي أن الرجل يتبني غلاماً فيصير كابنه يرى كلاهما الآخر ، ويحرم على الأب أن يتزوج من زوجة متبناه إذا طلقها أو مات عنها . فأراد الله تعالى أن يبطل هذه العادة ، ويحسم هذه القضية ، فليس الابن المتبنى كالابن الصلبي ، وقد مر ذلك بمراحل . . **الأولى**: عندما كان يطلق على زيد اسم « زيد بن محمد » فنزل قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الأحزاب : 4، 5] .

فهنا عاد إلى زيد اسمه الأول الأصل وهو « زيد بن حارثة » وكان ذلك أول الأمر .

ثم المرحلة الثانية ، وهي ابطال هذه العادة بصورة عملية ، وذلك أن رسول الله ﷺ ذهب يخطب ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأبت زينب وأبي أخواها عبد الله وعبيد الله ، إذ كيف وهي القرشية الحسيبة النسيبة تتزوج من مولى هو زيد بن حارثة ؟! ولكن الإسلام لا يعترف بهذه الأحساب ، فلا تفاوت بين المسلمين بالحسب والنسب ، إنما التفاوت فقط بالتقوى وعمل الصالحات ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : 13] .

وهنا ينزل قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً** ﴾

[الأحزاب : 36] .

فأطاعت زينب بنت جحش رضي الله عنها أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، وتم زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش .

ويبدو أن الحياة بينهما اكتنفتها [1] بعض المشكلات ، وكان زيد رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله ﷺ ويشكو له حاله مع زينب ، والرسول ﷺ يأمره بالصبر والإمساك عليها ، ومرة بعد مرة يخبر زيد رضي الله عنه رسول الله ﷺ أنه يود طلاق زينب ، لأن

(1) اكتنفتها : أحاطب بها .

العشرة بينهما أصبحت شبه مستحيلة ، فيقول له الرسول ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله وينصحه بعدم طلاقها .

وأخيراً انتهت الحياة بينهما بالانفصال ، وبعد مدة ينزل الأمر الألهي بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد انتهاء عدتها ، فتنتهي بذلك تلك العادة الذميمة ، ويذهب زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى زينب مبشراً وهو يقول : أبشري يا زينب ، فقد زوجك الله تعالى برسول الله ﷺ .

وانتهت بذلك عادة عدم زواج الرجل من ابنة متبناه ، وفي هذا نزل القرآن الكريم يعرض تلك القضية مع اكرام زيد رضي الله عنه بأن ذكر اسمه ، فإذا كان زيد قد حرم من اسم زيد بن محمد ، فإن الله تعالى عوضه بأن ذكر اسمه في كتاب باق ، يتلى إلى يوم القيامة ، ويتعبد بتلاوته .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : 37 ، 38] .

ولكن يبدو أن البعض لم يفقهوا ولم يستوعبوا هذا الأمر ، وهذه الحكمة فتساءلوا فيما بينهم : كيف يتزوج محمد من زوجة متبناه المطلقة ؟

وهنا كانت المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه القضية ، وهذا التشريع الحكيم ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : 40] .

***

وتمضي سنوات ، وفي جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة أراد رسول الله ﷺ أن يقتصّ ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه الذي كان قد أرسله بكتاب إلى أمير «بصرى» فتعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني عند قرية « مؤتة» عند مشارف بلاد الشام ، وقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسولاً غيره .

جهز ﷺ الجيش ، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وأمّر عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة . .

وسار الجيش إلى حيث أمر رسول الله ﷺ، فوجدوا أن الروم قد جمعوا لهم مائة ألف ، وانضم إليهم من قبائل العرب المتنصرة الموالية للروم مائة ألف آخرين ، فصارجيش العدو مائتي ألف مقاتل ، وهنا تفاوض قادة الجيش فيما يفعلونه ، أيقاتلون وهم بهذا العدد القليل ، وعدوهم بهذا العدد وهذه العدة ؟ أم يرسلون إلى رسول الله ﷺ يستشيرونه ويطلبون منه المدد [1] .

وبعد المشاورات قام فيهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مستنهضاً فيهم شجاعتهم ، وحثهم على القتال ، حتى أجمعوا أمرهم على دخول المعركة .

***

أخذ زيد بن حارثة رضي الله عنه الراية ، وتقدم الصفوف ، وهو يصيح الله أكبر ، الله أكبر ، ثم اخترق صفوف الرومان ، وأخذ يضرب بسيفه يميناً ويساراً ولا يبالي بما يصيبه من سهام ورماح العدو ، حتى تناولته سيوفهم ، وسقط شهيداً وسط دمائة ، ولم تسقط الراية بل أخذها بعده جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقاتل حتى قتل شهيداً ، وأخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة ، وقاتل حتى قتل شهيداً ، واصطلح الجند على خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي استطاع أن يخلص الجيش وينسحب به دون أن تلحقه خسارة كبيرة .

في هذه الأثناء كان الله تعالى قد أعلم رسوله ﷺ بأحداث المعركة ، فقد وقف في مسجده ينعي صحابته ، ويصف وقائع المعركة ، ويقول : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا حدوث شيء يكرهونه في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ثم قال ﷺ : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم قال : لقد رفعوا إلى الجنة على سُرُر من ذهب .

وذهب رسول الله ﷺ يعزي أهل القواد الثلاثة ، وعندما وصل إلى بيت زيد

(1) المدد : الإعانة والمساعدة .

أجهشت [1] ابنته بالبكاء ، فبكى النبي ﷺ حتى سمع صوت بكائه سعد بن عبادة رضي الله عنه فسأله : ما هذا يا رسول الله ؟!

فأجابه ﷺ : هذا بكاء الحبيب على حبيبه .

رضي الله عن حبّ رسول الله زيد بن حارثة ، ومتعة بالخلود في الفردوس الأعلى . .

* **من فضائل زيد بن حارثة** رضي الله عنه .

(1) يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : 37] .

(2) قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « **يا زيد أنت مولاي ، ومني ، وإليّ ، وأحب الناس إليّ** » رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني .

(3) تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم ، ولو بقي لاستخلفه بعده » .

(4) عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة رضي الله عنه « **أنت أخونا ومولانا** » جزء من حديث رواه البخاري .

* * *

(1) أجهشت : همت بالبكاء .

(١٥) جعفر ابن أبي طالب

هو أحد الذين كانوا يشبهون رسول الله ﷺ، فهو ابن عمه . لقبه الرسول ﷺ بذي الجناحين؛ لأنه مات شهيداً في غزوة مؤتة بعد أن قطعت يداه، فأبدله الله تعالى بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.

كان رضي الله عنه محبًا للمساكين، ومن أخير الناس لهم؛ ولذلك كناه الرسول بأبي المساكين. ويقال أنه أول من لقب بأمير المؤمنين عندما هاجر إلى الحبشة بطائفة من المؤمنين كان هو أميرهم، وظل هناك يدعو إلى دين الله حتى أسلم على يديه النجاشي ملك الحبشة.

عاد إلى المدينة المنورة مهاجراً مرة أخرى إلى النبي ﷺ يوم فتح خيبر، ففرح بقدومه أعظم فرح. وهو أحد قواد معركة مؤتة التي مات فيها شهيداً.

تلك كانت لمحة خاطفة عن سيرة هذا الصحابي العظيم، أما تفاصيل سيرته ففي السطور التالية.

***

كان أبو طالب بن عبد المطلب كثير العيال، قليل المال، وأراد ابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يخفف عنه، ويحمل معه بعض أعباء تربية ابنائه، خاصة بعد أن أصاب الناس ما أصابها من قلة الرزق وشظف[1] العيش، فطلب من عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يكفل كل منهما أحد أبناء أبي طالب، فكان جعفر رضي الله عنه في كفالة عمه العباس رضي الله عنه.

وحينما بعث الله تعالى محمداً داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، ورسولاً إلى الناس كافة . كان جعفر رضي الله عنه من أوائل المسلمين، ومن الطبيعي أن يناله ما ينال غيره من أذى قريش واضطهادها، وحينما اشتد الأذى بالمسلمين المستضعفين أذن الرسول ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة حيث ملكها الذي لا يظلم عنده أحد.

وهاجرت جماعة المؤمنين بقيادة أميرها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت هذه هي الهجرة الثانية إلى الحبشة التي وصلوا أرضها وعاشوا فيها في سلام ولكن قريشًا

---

(1) شظف : شدة وضيق.

لم تسترح لهذا الأمر، فقررت إرسال رجلين بالهدايا إلى النجاشي ملك الحبشة ليسلمهما هذه الفئة التي مرقت وفارقت دين الآباء والأجداد. . وصل الرجلان إلى الحبشة، ودخلا قصر الملك بهداياهما، وتكلم أحدهما، وهو عمرو بن العاص - وكان يومئذ مشركًا - إلى النجاشي، وقال: أيها الملك، لقد نزل بأرضك نفر من بني عمنا، فارقوا ديننا، ورغبوا عن آلهتنا، ولم يدخلوا دينك. وقد بعثنا أشراف قومنا لتردهم إلينا. فقال النجاشي: قوم جاوروني ونزلوا بأرضي، واختاروني على من سواي، والله لا أفعل حتى أسمع منهم، ثم أرسل في طلبهم.

وصلت الفئة المؤمنة إلى قصر النجاشي بقيادة أميرها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان هو المتحدث عنها. وسألة النجاشي بحضرة رسولي قريش، وحضرة أساقفته[1] ورجال مملكته: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ فقال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع[2] ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة[3]، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

دخلت هذه الكلمات مسامع[4] النجاشي ووصلت إلى قلبه فهزته، وشعر

---

(1) أساقفة: جمع أسقف وهو رجل دين عند النصاري فوق القيس ودون المطران.
(2) نخلع: نترك.
(3) قذف المحصنة: نسبة الفحشاء إليها.
(4) مسامع: أذان، مفردها مِسمَع.

بصدقها وروعتها. إنها أوامر تبدد ظلمات الحياة بأنوارها، وتزيل ظلمها بعدالتها، ولذلك بادر النجاشي بسؤال عن كلام صاحب هذه الأوامر، قائلاً لجعفر: هل معك مما جاء به عن الله من شئ. فقرأ جعفر رضي الله عنه أول سورة مريم. فبكي النجاشي حتى ابتلت لحيته، وقال إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة [1] واحدة، ثم التفت إلى مبعوثي قريش، وقال لهما: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً.

وفي اليوم التالي جاء رسولا قريش إلى النجاشي يكيدا لجعفر رضي الله عنه وإخوانه، وقالا له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً.

ومرة ثانية لم يأخذ النجاشي بقولهما دون تحقيق، فدعا جعفر رضي الله عنه وإخوانه وسألهم عما يقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم، هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول [2]. فضرب النجاشي الأرض وأخذ منها عوداً، ثم رفعه وهو يقول والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت. اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، ومن سبكم أو آذاكم فعليه جزاء ما فعله. ثم التفت إلى رسولي قريش وقال لهما: خذا هداياكما فلا حاجة بي إليها.

وعاد الرجلان إلى مكة خائبين على وجهيهما آثار الهزيمة.

***

بقي المسلمون في الحبشة ينعمون بعدل النجاشي، وينشرون الإسلام بين أهلها، حتى أسلم على أيديهم النجاشي رضي الله عنه وغيره من أهل مملكته. ولم تكن هجرتهم إلى الحبشة فراراً من أذى قريش فقط، بل نشراً لدين الله في أرض جديدة، وإعلاناً بأن هذا الدين ليس دين طائفة خاصة من الناس، بل هو دين الله للعالمين، وأن محمداً ليس رسول الله إلى العرب فقط، بل هو رسول الله إلى الناس أجمعين.

وفي أثناء بقاء المسلمين بأرض الحبشة ولد لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابنه عبد الله وكان هو أول مولود في الإسلام بأرض الحبشة.

ظل المسلمون بالحبشة عشر سنوات، وكانت تأتيهم أخبار إخوانهم في مكة

---

(1) مشكاة: فتحة في الجدار غير نافذة يوضع فيها المصباح.

(2) البتول: المنقطعة عن الزواج للعبادة.

حتى هاجروا منها إلى المدينة، وفرحوا بنصر الله يوم بدر الكبرى، وحزنوا لما أصاب إخوانهم يوم أحد.

في العام السابع للهجرة قدم جعفر رضي الله عنه بإخوانه المسلمين من الحبشة إلى المدينة في نفس اليوم الذي تم فيه فتح خيبر، ففرح الرسول ﷺ بقدومه فرحًا عظيمًا، واعتنقه وقبله بين عينيه، وهو يقول: « **ما أدري بأيهما أنا أشد فرحًا، بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر**».

ونزل جعفر رضي الله عنه بجوار المسجد النبوي، حيث جوار رسول الله ﷺ وملازمته. وكان رضي الله عنه محبًا للمساكين، عطوفًا عليهم، حتى لقبه رسول الله ﷺ بأبي المساكين؛ لتعلقهم به، وإقبالهم عليه، ومشاركتهم له في طعامه وشرابه، وهو كما قال عنه أبو هريرة رضي الله عنه كان أخير الناس للمساكين. . وتاقت نفس جعفر رضي الله عنه إلى الجهاد في سبيل الله، حتى يعوض ما فاته من مشاهد ومواطن، ويحظى بالدرجات العلى التي أعدت للمجاهدين، والمنى كل المنى لو نال الشهادة في سبيل الله تعالى.

وبالفعل ما هي إلا شهور قلائل بعد عودته من الحبشة، وفي السنة الثامنة للهجرة كانت معركة مؤتة بين المسلمين وعدوهم من الروم ومن ناصرهم من نصاري العرب، وكان جعفر رضي الله عنه أحد قواد الجيش الإسلامي، حيث قال رسول الله ﷺ وهو يرسل الجيش، ويؤمر عليه زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة، «**إن قتل زيد فالأمير جعفر ابن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة**».

***

خرج الجيش من المدينة المنورة، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وسار نحو مؤتة حتى بلغها، ووجد أن جيش العدو تعداده مائتي ألف مقاتل.

ودارت رحى معركة شرسة، وكان قائد الجيش زيد بن حارثة يحمل الراية، وانهالت عليه سهام وسيوف الأعداء حتى قتل شهيدًا في سبيل الله مقبلاً غير مدبر، وقبل أن تسقط الراية نزل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من على صهوة[1] حصانه، ثم عقَره[2] وتقدم نحو الراية وحملها، وهو يقول:

---

(1) صهوة الحصان: مكان السرج من ظهره.

(2) عقره: ضرب قوائمه بالسيوف وذبحه وكان جعفر أول من عقَر في الإسلام.

يا حبـــذا الجنة واقترابهـــا طيـبةً وبـــــارداً شرابـهـــا

والـــروم روم قد دنا عذابهـا كافـرة بعيـدة أنســـابهـــا

علـــيّ إذ لاقيتـــها ضِرَابُهـا

وتقدم نحو صفوف الكافرين يطيح برؤسهم، ويضرب فوق الأعناق، ويضرب منهم كل ساعد وبنان [1]، ويصول ويجول يمينًا ويسارًا يخترق الصفوف ويقاتل في شجاعة وإقدام نادرين، حتى أمر قواد الروم بإيقاف زحف هذا المقاتل مهما كلفهم ذلك. فجاءت مجموعة منهم، وأحاطت به من كل جانب، حتى استطاعت أن تنال منه. وأصيب جعفر رضي الله عنه بضربة سيف قطعت يده اليمني، فأخذ الراية بيده اليسري، فجاءته ضربة أخرى قطعت يده اليسري، فاحتمل الراية بين عضديه[2] حتى لا تسقط، فانهالت عليه السيوف والرماح تطعنه حتى قتل.

قبل أن تسقط الراية كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قد رفعها عاليًا، وقاتل هو أيضًا حتى لحق بصاحبيه شهيداً في سبيل الله.

وأثناء المعركة، وبعد صلاة العصر كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ ويخبره بمصرع الأمراء الثلاثة، والرسول ﷺ يجلس مع أصحابه في المسجد ويخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه، وهو يقول: **أخذ الراية زيد بن حارثة، فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم صمت لحظة سالت فيها دموعه الطاهرة على خده الشريف**، فتغيرت وجوه الأنصار ظنًا منهم حدوث ما يكرهونه في عبد الله بن رواحه رضي الله عنه. ثم أكمل رسول الله ﷺ: **ثم أخذها عبد الله بن رواحه، فقاتل بها حتى قتل شهيداً**. ثم قال: **لقد رفعوا إلى الجنة**. ثم قال عن جعفر رضي الله عنه: **« والله لقد أبدله الله بذراعيه جناحين في الجنة»**.

ثم ذهب إلى بيت جعفر رضي الله عنه ليعزّي أهله، فوجد زوجته أسماء بنت عميس - رضي الله عنها - تنظف أبناءها وتعجن عجينها. فأخذ الأبناء، واحتضنهم وهو يبكي، فأحست المرأة بشيء، فسألت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ فأجاب ﷺ: **نعم، أصيبوا هذا اليوم**. فصاحت المرأة، واجتمعت النسوة لصياحها يشاركنها فيه، وخرج رسول الله ﷺ حزينًا على ابن عمه وصاحبه رضي الله عنه الذي قال عنه « أشبهت خَلْقي وخُلُقي» رواه البخاري.

• **من فضائل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :**

(1) - كان عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما- إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال : «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» رواه البخاري

(2) - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة**» رواه الترمذي

(3) ـ قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما احتذى[1] النعال، ولا ركب المطايا[2]، ولا ركب الكُور[3] بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر.

***

(1) احتذى : لبس الحذاء واتخذه نعلاً.
(2) المطايا : جمع مطيّة، وهي الدواب المتخذه للركوب.
(3) الكور : هو الرّحْل الذي يوضع على ظهر البعير للركوب.

(١٦) عبد الله بن رواحه رضي الله عنه

إذا كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يطلق عليه شاعر الرسول ﷺ ، فإن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هو أيضًا شاعر الرسول ﷺ، فكثيراً ما دافع عنه بقوله ولسانه وشعره البليغ الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه أشد على الكافرين من وقع النبل عليهم، ولم يجاهد ابن رواحة رضي الله عنه بلسانه فقط، بل جاهد بنفسه، وتولى قيادة الجيش حتى نال الشهادة في سبيل الله في غزوة مؤتة.

بين إسلامه واستشهاده عاش حياةً مع الرسول ﷺ مليئةً بالعلم والذكر، فقد كان يحب مجالس الذكر، وكان يقول لمن لقيه، هيا بنا نؤمن ساعة، وكان يحب أيضًا مجالس العلم، وكان عفيفًا تقيًا نقيًا كغيره ممن تربوا بتربية النبي ﷺ، وتخلقوا بأخلاقه.

***

هو أبو محمد، وهذه كنيته، أما اسمه فهو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري الشاعر المشهور.

تبدأ قصتنا معه مع بداية تعرفه على الإسلام، حيث أنه كان أحد الثلاثة والسبعين رجلاً الّذين شهدوا بيعة العقبة الثانية، وكان قد سمع عن الإسلام ذلك الدين الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق والعدل والإحسان، ونبذ ما سوى الله تعالى من معبودات، وسمع أيضًا عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ رضي الله عنه ذلك الرجل الهاشمي القرشي، المعروف بصدقه وأمانته وعفته وطهارته وعقله الراجح، ولأن الله تعالى أعطاه عقلاً راجحًا، وقلبًا رقيقًا وجد أن الرجل صادق فيما يدعو إليه من فضائل، وأن الدين حق فيما يأمر به من فرائض ومبادئ.

دخل الإسلام كدين، ومحمد بن عبد الله ﷺ كرسول إلى قلب عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وذلك عن طريق مصعب بن عمير رضي الله عنه أول سفير في الإسلام، وكان الرسول ﷺ قد بعثه إلى أهل المدينة المنورة يعلمهم الإسلام، وينشره بينهم، ويفقههم في الدين، ويتلو عليهم القرآن الكريم.

***

شهد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بيعة العقبة الثانية، أيام التشريق[1] من موسم الحج قبل الهجرة بقليل. وبعد أن بايعهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**اخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً[2] ليكونوا على قومهم**».

فكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه نقيب بني الحارث بن الخزرج، وحاز بذلك شرف حضور بيعة العقبة ونوال النقابة، لأنه كان كبيراً في قومه، سيداً في عشيرته، بل كان أحد القلائل الذي يقرأون ويكتبون.

وما هي إلا مدة قصيرة حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة، ثم على الأثر هجرة الرسول ﷺ إليها. وقد خرجت المدينة كلها لاستقباله، وما أن دقت ناقته بأخفافها[3] أرض المدينة المنورة حتى تسابق الجميع إلى خطامها[4] كل منهم يريد أن ينزل رسول الله ﷺ عنده، حتى استقر في النهاية فيَ دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

وبدأت دولة الإسلام في المدينة المنورة، وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أحد رجالها، حيث أنه الشاعر المدافع عن الإسلام ورسوله، والشعر في ذلك الوقت كان يمثل الجهاز الإعلامي للجماعة أو القبيلة أو الدولة.

وعندما شُرع الجهاد في سبيل الله، وأذن الله لمن ظُلموا بأن يدافعوا عن أنفسهم، حمل ابن رواحة رضي الله عنه سلاحه مجاهداً في سبيل الله، ولم يترك مشهداً من المشاهد إلا وكان فيه بجوار رسول الله ﷺ، فكما نال شرف بيعة العقبة، نال شرف شهود بدر وأحد والخندق وصلح الحديبية وبيعة الرضوان، وفي النهاية نال الشرف الأكبر باستشهاده في معركة مؤتة كما سيأتي.

***

صحب عبد الله بن رواحة رضي الله عنه رسول الله ﷺ، وتخلق بأخلاقه، وتأدب بآدابه، ولهذا فلا غَرْو[5] أن يبعثه رسول الله ﷺ بشيراً إلى أهل المدينة بنصر الله

---

(1) أيام التشريق: الأيام الثلاثة بعد عيد الأضحى.
(2) نقيب: كبير القوم.
(3) أخفاف: جمع خُفّ، وهو قدم البعير.
(4) خطام: الحبل يلف حول رقبة البعير ليقاد به.
(5) لاَ غرو: لا عجب.

تعالى للمسلمين في بدر الكبرى، وأيضًا استخلافه على المدينة المنورة في غزوة بدر الثانية، كما لا غرو أن يكون صاحب زمام ناقة النبي ﷺ يقودها أثناء عمرة القضاء، وما كاد يدخل مكة ويبصر المشركين عن بُعد وهم يتركون مكة ثلاثة أيام حتى يفرغ المسلمون من أداء عمرتهم، حتى صاح بشعره مخاطبًا الكفار.

خلّوا بني الكفار عن سبيله ... خلّوا فكل الخير في رسوله

يارب إني مؤمن بقيله[1] ... أعرف حق الله في قبوله

والبيتان يعنيان أن يترك الكفار رسول الله ﷺ ينشر دعوته، ولا يقفون في سبيل نشرها، فالخير كله في الإسلام وتعاليمه وسنة رسوله ﷺ، ثم يؤكد على إيمانه بمحمد ﷺ، ويصدق أقواله، فالحق كل الحق في قبول ما جاء به.. وعندما سمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ما ينشده ابن رواحة رضي الله عنه، غضب وقال: يا ابن رواحة، أفي حرم الله، وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟! فيجيب الرسول ﷺ: «**خلّ عنه يا عمر، فو الذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل**».

وبينما المسلمون يطوفون بالبيت الحرام كانوا يرددون من شعر ابن رواحة رضي الله عنه:

يارب لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الكفار قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

وحينما يسمع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مع غيره من شعراء الأنصار بنزول قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: 224] يحزنون ويذهبون إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، ويقولون: يا رسول الله، قد علم الله حين أنزل هذه الآية إنا شعراء. فيتلوا عليهم الرسول ﷺ قول الله تعالى عقب الآية السابقة: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: 227] وقال: أنتم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الشعراء: 227] وقال: أنتم. ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: 227] وقال: أنتم.

ومن أخلاقيات الإسلام التي تخلق بها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حب حضور مجالس العلم والذكر، فيقول عنه أبو الدرداء عويمر بن عامر رضي الله عنه: أعوذ بالله أن

(1) قيله: قوله.

يأتي عليّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقيني مقبلاً ضرب بين ثديي ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ، ثم يقول : يا عويمر ، اجلس فلنؤمن ساعة . فنجلس فنذكر الله ما شاء ، ثم يقول : يا عويمر هذه مجالس الإيمان .

ومنها امتثاله لأوامر الله تعالى ورسوله بمجرد سماعها ، ففي يوم كان في طريقه إلى المسجد فسمع رسول الله ﷺ يخطب ويقول : **اجلسوا** ، فجلس مكانه خارج المسجد على وضعه حين سمع الأمر ، فلما فرغ الرسول ﷺ من كلامه بلغه ما فعل ابن رواحة ، فقال له : زادك الله حرصاً على طواعية الله ، وطواعية رسوله .

ومنها ابتعاده عن ما حرم الله تعالى ، وعد له حتى مع من يبغضهم ، فبعد فتح خيبر أرسله رسول الله ﷺ إلى أهلها يحرز ويقدر ما على النخيل من ثمار ، ويقسمها بين المسلمين واليهود ، فإذا قالوا له : تعديت علينا . قال لهم : **إن شئتم ، فلكم وإن شئتم فلنا** أي هذا القسم . فيعجب اليهود من عدله . وذات مرة حاولوا أن يرشوه ، فقال لهم : **يا أعداء الله تطعموني السُّحت**[1] ، **والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ ، ولأنتم أبغض الناس إليّ ، ولا يحملني بغض إياكم ، وحبي إياه على أن لا أعدل .**

إنها كلمات تحمل أعلى درجات العدل . العدل حتى مع الأعداء مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة : 2] فليس بغضه لليهود يحمله على ظلمهم ، وليس حبه لرسول الله ﷺ يحمله على الانحياز له ولجانب المسلمين ، بل العدل المطلق ، ولهذا قال اليهود له : بهذا قامت السموات والأرض . أي بهذا العدل . .

ومن ورعه وتقواه ، قالت زوجته عندما سُئلت عن حاله : « **كان إذا أراد أن يخرج من البيت صلى ركعتين ، وإذا دخل صلى ركعتين ، لا يدع ذلك** » .

ومن جهاده بلسانه ، قوله يصف رسول الله ﷺ :

لو لـم تكن فيه آيـات مبينـة ... كـانت بديهته تنبيك بالـخبر

وقوله :

وفينـا رسـول الله يتـلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانـا الهدى بعـد العمى فقلوبنا ... به موقـنات أن ما قـال واقـع

---

(1) السُّحت : المال الحرام .

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

بل إنه ذات يوم مر في المسجد النبوي ورسوله الله ﷺ جالس، وعنده أناس من الصحابة في ناحية من المسجد، فلما رأوه قالوا: يا عبد الله بن رواحة! فجاء إليهم. فقال له الرسول ﷺ: **اجلس ها هنا**. فجلس بين يديه، ثم سأله: **كيف تقول الشعر؟** فأجابه: أنظر في ذلك ثم أقول.

ثم أنشد

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خانني البصر

أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر

فثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسي ونصراً كالذي نصروا

فابتسم الرسول ﷺ في وجهه، وقال: « **وإياك فثبت**»

وكما جاهد بلسانه جاهد بنفسه حتى نال شرف الشهادة في سبيل الله، وذلك في غزوة مؤتة، أو غزوة الأمراء.

***

في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة جهز رسول الله ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وبعثه إلى الشام لحرب الروم الذين اعتدوا على رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه بالقتل، وكان قتل الرسل ممنوعًا، وأن القتل معناه إعلان الحرب، فكان لزامًا على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يدفعوا عنهم خطر قادم محقق.

جهز الرسول ﷺ الجيش، وجعل عليه زيد بن حارثة رضي الله عنه قائداً، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ثم إن أصيب فليرتضي المسلمون رجلاً منهم.

وعندما ودع الناس الجيش بكى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فسئل: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة[1] بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾

(1) صبابة: الشوق والرقة.

[مريم: 71] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ أي كيف الخروج منها بعد المرور عليها؟

ثم ودعهم المسلمون : صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين.

فما كان من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي تاق للشهادة وتمنى نوالها، وعلم ماذا أعد الله للمجاهدين والشهداء من منازل وعلم أيضًا فضلهم على من سواهم، ما كان منه إلا أن أنشد عقب هذا الوداع.

لكني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرغ تقذف الزَّبَدَا[1]

أوطعنةً بيدَيْ حَرّان مُجْهِزَةً ... بحربة تُنْفِذ الأحشاء[2] والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جَدثي[3] ... أرشده الله من غازٍ وقد رَشَدَا

والأبيات تعني أنه لا يريد الحياة، ولا أن يعود إلى أهله سالمًا، وإنه يسأل الله مغفرة ذنوبه، ويتمني ضربة قوية بالسيف تسيل دمه، أو طعنة برمح أو حربة سريعة القتل تنفذ إلى أحشائه، وتخترق أمعاءه وكبده، حتى إذا ما نال الشهادة ذكر بخير، وقالوا عند المرور على قبره، وفقه الله وأرشده إلى ما كان يطلبه، فنعم الغاز هو في سبيل الله.

وسار أبطال الإسلام، حتى إذا ما وصلوا إلى أرض العدو بلغهم أن هرقل ملك الروم قد جمع لهم قد جمع مائة ألف مقاتل، وقد انضم إليهم من قبائل العرب الموالية لهم مائة ألف آخرين، فصار عددهم مائتي ألف.

عند وصول هذه الأنباء إلى المسلمين تشاوروا فيما بينهم، أيواجهون مائتي ألف، وهم ثلاثة آلاف؟؟ إن ذلك يعني الفناء، وإلقاء النفس في التهلكة لأن المعركة غير متكافئة. وأقام المسلمون ليلتين يفكرون في أمرهم، ويتشاورون هل يكتبون إلى رسول الله ﷺ فيخبرونه بعددهم وعدد عدوهم، فإما أن يمدهم بالرجال والسلاح، وإما أن يأمرهم بأمره فينفذونه، أم يخوضون غمار هذه الحرب. . . قطع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هذه المشاورات والمحاورات، وشجع الجيش قائلاً: يا قوم، والله إن

---

(1) الزبَدَا: رغوة الدم.

(2) تنفذ الأحشاء: تخترقها.

(3) جدثي: قبري.

التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون - الشهادة- وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة.

فوقعت هذه الكلمات على قلوب الجنود برداً وسلاماً، وأزالت ما بها من رهبة وأنزل الله تعالى السكينة والشجاعة عليهم، فقالوا: في نفس واحد: صدق والله ابن رواحة، صدق والله ابن رواحة.

ثم سار جيش الإسلام ليواجه جحافل[1] الروم، فأخذ الراية زيد بن حارثة رضي الله عنه فقاتل بها حتى سقط شهيداً، ثم حمل الراية من بعده جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقاتل حتى قطّعت السيوف يديه، ثم مزقت جسده، فنال الشهادة كأخيه من قبله، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهزها وهو يصيح الله أكبر. الله أكبر. ثم تقدم نحو صفوف الأعداء، فتردد بعض الشيء، فحمس نفسه قائلاً:

يا نفـــس ألا تقتلي تموتي ... هذا حِمَام الموت قد صَليت

وما تمنيت فقــد أعطيت ... إن تفعــلي فعلـهما هديت

وإن نـــأخرت قد شقيت

إنه يخاطب نفسه، ويقول لها يا نفس إن لم تقتلي بالسيف متّي على فراشك، فها هو قضاء الله، والأجل المحتوم. يا نفس طالما تمنيت أن ترزقين الشهادة فها هي أمامك، فهلمي إليها كما فعل صاحبيك زيد وجعفر، فإنك إن فعلت ذلك هديت إلى الصواب، وإلا فقد كُتب عليك الشقاء.

ثم اقتحم الصفوف، واخترقها وهو يقول: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى امرأتي فهي طالق، إلى غلماني وعبيدي؟ فهم أحرار، إلى مالي؟ فهو لله ورسوله. ثم أتاه ابن عم له بعرق من لحم، وقال له: كُل هذا، وشد به صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وتناول منه شيئًا يسيراً، فلما ذاقه ألقاه من يده، وقال لنفسه: أنت في الدنيا؟!!، ثم هز سيفه وأخذ يضرب به الأعداء يميناً ويساراً حتى قتل شهيداً مقبلاً غير مدبر.

وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ يحكي لأصحابه، وهم جلوس في المسجد

(1) جحافل: جمع جحفل، وهو الجيش الكثير.

وقائع ما يجري في مؤتة . قال : **أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً** ، ثم صمت رسول الله فتغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بعض ما يكرهون . إنهم يريدون له شرف الشهادة كصاحبيه ، ثم قال رسول الله ﷺ : **ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً** . ثم صمت لحظة أخرى قال بعدها : **لقد رفعوا إلى الجنة على سُرُر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً[1] عن سريرى صاحبيه** ، فقال أحد الأنصار : عمّ هذا؟ فقال ﷺ : مضيا- أي زيد وجعفر- **وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى** .

فهنيئًا لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه جهاده مع رسول الله ﷺ ، وصحبته ، وهنيئًا له الشهادة ، وهنيئًا له بشراه بالجنة .

● **من فضائل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :**

١ - قال رسول الله ﷺ : « **رحم الله ابن رواحة ، رحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التي تتباهي بها الملائكة**» رواه الإمام أحمد ، وضعفه العلامة الألباني .

* * *

(1) ازورار : ميل وعوج .

(17) أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما -

يطلق عليه لقب أصغر قائد في الإسلام، فقد جُبل[1] على حب الجهاد فهو يسري فيه سريان الدم في الشرايين، وهو الحبّ ابن الحبّ أي المحبوب ابن المحبوب. إنه أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما - يعرف فضله وشرفه الصحابة الكرام، أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصحابة جميعًا يعرفون له هذه المكانة في قلب النبي ﷺ، ولذلك فقد وقع اختيارهم عليه ليكلم النبي ﷺ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، هيا معًا نقترب أكثر وأكثر لنعرف عنه أكثر وأكثر.

***

تبدأ حياة أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- يوم أن زوّج رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه من أم أيمن بركة الحبشية، حاضنة الرسول ﷺ ومولاته، فولدت له غلامًا سُرّ به رسول الله ﷺ، وهذا الغلام هو أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- فهو وأيمن أخوان لأم، نشأ أسامة في بيت النبوة، وصار الحبّ ابن الحبّ فأبوه زيد بن حارثة رضي الله عنه عتيق رسول الله ﷺ وحبّه، وقائده على السرايا، وأمه هي أم أيمن بركة الحبشية - رضي الله عنها-، وكانت جارية عند أم النبي ﷺ فأعتقتها، وهي أمه بعد أمه كما يقول عنها ﷺ.

فرح المسلمون بولادة أسامة، كما فرح به رسول الله ﷺ، ورباه كما ربّى أباه من قبل. وبلغ من حب رسول الله ﷺ لأسامة رضي الله عنه أنه ذات يوم وهو صغير تعثر وسقط على وجهه فشجت جبهته، وسال الدم على وجهه، فأمر النبي ﷺ عائشة - رضي الله عنها- أن تمسح عنه الدم، ولكنها لم تطق ذلك، فقام بنفسه يمسح عنه، ويضمة بين ذراعيه بحنان.

شب أسامة رضي الله عنه في المدينة يرقب نشأة الدولة الإسلامية الوليدة، وشب معه حب الجهاد وسمو الأخلاق، ولما لا وهو تربية بيت النبوة. بل إن الرسول ﷺ كان يوصي به خيراً ويقول: « **إن أسامة بن زيد من أحب الناس إلى، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاستوصوا به خيرا**»

---

(1) جُبِل: خُلِق وطُبِع.

عرف الصحابة هذه المكانة العالية، والمنزلة السامية لأسامة بن زيد - رضي الله عنهما- في قلب الرسول ﷺ؛ ولذلك فعندما سرقت امرأة من بني مخزوم خاف أهلها أن تقطع يدها فيعيّروا بها، وتشاوروا فيما بينهم، أيكلمون رسول الله ﷺ في شأنها؟ ولكن من يجرؤ؟ على ذلك؟

لم يجدوا إلا الحبّ ابن الحبّ أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-هو الذي يتشفع لها عند رسولَ الله ﷺ ، ويكلمه في أمرها، فقد تابت إلى الله تعالى. وكان أسامةفي ذلك الوقت شاب صغير السن، لا يقدر المواقف حق قدرها، ولا يعي الأمر الذي ذهب من أجله، وهنا يعلمه رسول الله ﷺ ، ويعلم الأمة معه درسًا لا يُنسي، فما أن خرجت الكلمات من فم أسامةرضي الله عنه حتى غضب رسول الله ﷺ وتغيّر وجهه، وقال له: « **أتشفع في حد من حدود الله الله يا أسامة؟؟**»

فأدرك أسامة رضي الله عنه خطأه، وطلب من رسول الله ﷺ العفووالمغفرة، وقال: استغفر لي يا رسول الله. ثم قام النبي ﷺ إلى المسجد وجمع الناس وخطبهم «**أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» ثم نزل من على المنبر بعد أن علّم الناس أنه لا شفاعة في الحدود، بل الكل أمام الله سواء.

***

عندما قامت معركة بدر الكبري كان أسامة صغيرًا، لا يستطيع حمل السلاح والقتال، ولكن قلبه كان معلقًا بحب الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك فعندما دعى داعي الجهاد إلى غزوة أحد بادر إلى حمل السلاح، والإنضام تحت لواء الجيش، ومعه بعض الصبيان كعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وأسيد بن ظهير، ولكن رسول الله ﷺ ردّهم عندما استعرض الجيش؛ لصغر أعمارهم. وعندما اجتمع أهل الشرك يريدون الإغارة على المدينة المنورة، حفر المسلمون الخندق حولها، وكان ممن حمل السلاح حينئذ أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-، وكانت هذه أولى مشاهده مع رسول الله ﷺ ، وما تخلف

بعد ذلك عن غزوة مع رسول الله ﷺ ، بل كان بجواره يقاتل معه، ويثبت مع من يثبت حين تشتد المعركة ويحمي الوطيس[1]، وليس أدل على ذلك من ثباته يوم حُنَيْن[2]، حين انهزم المسلمون أول الأمر، وكان ذلك درسًا من الله تعالى، لأنهم اغتروا بقوتهم وكثرتهم، وقال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلة. ولكن قوتهم لم تغن عنهم من الله شيئًا، فانهالت عليهم سهام الأعداء، فرجعوا منهزمين، وارتبك الجيش، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولكن رسول الله ﷺ ثبت، وثبت معه بعض الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد - رضي الله عنهم- حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم.

***

كان رسول الله ﷺ يرى في أسامة مشروع قائد عظيم، ولذلك فقد أعده لهذا الأمر، فكان يرسله على رأس السرايا، بل إن آخر بعث أرسله رسول الله ﷺ إلى الروم كان بقيادة أسامة رضي الله عنه.

وقدحدث في أحد هذه السرايا ما جعل أسامة يتلقي درسًا من رسول الله ﷺ لا ينساه طوال حياته.

يحكي أسامة بأن رسول الله ﷺ بعثهم إلى قوم، وكان منهم رجل شديد البأس والقتال، فكرّ هجم المسلمون وشدوا عليهم، فلما رأى ذلك الرجل أسامة رضي الله عنه ورجل آخر من الأنصار قادمين إليه بسيفيهما، قال لا إله إلا الله، فأمسك الأنصاري سيفه وكف عنه، أما أسامة رضي الله عنه فضربه بسيفه وقتله، فلما عادت السرية إلى المدينة المنورة، وعلم رسول الله ﷺ بتلك الواقعة عنّف[3] أسامة رضي الله عنه تعنيفًا شديدًا، وقال له: **يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!** فقال أسامة: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا من القتل. قال: **فمن لك بلا إله إلا الله.** فقال أسامة: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: **أفلا شققت[4] عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة. من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة..** فما زال يكررها حتى

---

(1) حمي الوطيس: جدت الحرب واشتدت.

(2) حُنَيْن: غزوة بين المسلمين وقبيلتا هوازن وثقيف في السنة الثامنة للهجرة.

(3) عنّف: لامه بشدة.

(4) أفلا شققت عن قلبه: هل بحثت عما بداخل قلبه، والمعنى لا تأخذ بظاهر العمل.

أسقط[1] في يد أسامة، وخشي على إيمانه، وتمنى لو لم يسلم إلا يومئذ، وأمره الرسول ﷺ أن يعتق رقبة، كفارة تتل الخطأ، وأعطى أسامة رضي الله عنه العهد لله تعالى ألا يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله، وذلك لأنه وعى الدرس جيداً.

***

في السنة الحادية عشرة للهجرة كان عُمْر أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- حوالي الثمانية عشر، وأراد رسول الله ﷺ أن يكسر أنف دولة الروم، ويذل كبريائها؛ لأنها وقفت تمنع وصول دعوة الإسلام وتبليغها إلى الناس، وظنت أن الأمر بيدها، وأنها على ما تشاء قادرة، فأمر رسول الله ﷺ بتجهيز جيش وبعثه إلى أرض فلسطين، حيث حدود دولة الروم، وأمّر على الجيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-. وأمره أن يسير بالجيش حتى يدخل حدود الشام التابعة آنذاك لدولة الروم، حتى يعلم العرب الموالين لهم قدرة وقوة جيش الإسلام، وتعلم هي أنها ليست بعيدة عن سيوف المسلمين، فتكف عن غرورها وغطرستها[2]، وأوصاه قائلاً: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأسرع المسير تسبق الخبر.

وما أن علم البعض بإمْرة أسامة على الجيش حتى تهامسوا فيما بينهم، ربما اشفاقًا على الجيش من أمير لا زال دون العشرين، لا خبرة له بالمعارك، خاصة وأنها معركة ستكون مع أعتى دولة آنذاك. وربما لعدم إدراك الحكمة من هذا الأمر.

قال البعض: يولي علينا رسول الله ﷺ هذا الغلام وفي الجيش المهاجرين الأولين. وأثناء ذلك بدء رسول الله ﷺ يشتكي من مرضه الذي مات فيه وما أن بلغه تهامس الهامسين، وقول القائلين حتى غضب غضبًا شديداً، وخرج على الناس وقد عصب[3] رأسه من شدة المرض فصعد المنبر، وحمد الله وقال: «**أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ فو الله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله (قسم) إن كان للإمارة لخليق[4]، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وإن كان لأحب الناس إليّ، وإن هذا (يقصد أسامة) لمن أحب الناس إليّ بعده، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم**».

---

(1) أسقط في يده: ندم وتحيّر.
(2) غطرستها: تطاولها وتكبرها.
(3) عصّب رأسه: ربط رأسه وشدّها.
(4) لخليق: لجدير.

ثم نزل رسول الله ﷺ من على المنبر، وكان ذلك يوم السبت العاشر من ربيع الأول. . . عسكر الجيش خارج المدينة، وبدء المجاهدون ينضمون إليه، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا وانضم، أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وكذلك أكابر الأنصار أمثال قتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم - رضي الله عنهم- جميعًا، ولكن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ جعلت الجيش ينتظر قليلاً حتى يطمئن عليه.

وذهب قائد الجيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- يطمئن عليه فدخل عليه ونظر إليه، فوجده صامت لا يتكلم، بل يرفع يده إلى السماء ويضعها عليه فعرف أسامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يدعو له.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أكثر من مرة قبل موته بإنفاذ[1] جيش أسامة، وفي يوم الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام الحادي عشر للهجرة انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

***

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أول ما فعله هو إرسال جيش أسامة، ولكن طائفة من المسلمين رأت أن يؤخر الخليفة إرسال هذا الجيش حتى تستقر أحوال العرب، خاصة بعد ارتداد معظمهم. . ذهب هؤلاء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكلموه في ذلك، لأنهم لا يأمنون على أهل المدنية من المرتدين أن يُغيروا[2] عليهم، وفي نفس الوقت فهم في أمان من الروم وبعد أن تهدأ الأمور، ويعود من ارتد إلى حديقة الإسلام وتستقر الأوضاع يبعث جيش أسامة. فلما سمع الصديق رضي الله عنه هذا الكلام، قال لهم: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت بعث أسامة، كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: إنقذوا جيش أسامة؟!!! بعدها قال بعضهم لعمر بن

---

(1) إنفاذ: إرسال.

(2) يغيروا: يهجموا.

الخطاب رضي الله عنه، اذهب إلى أبي بكر، فإن أبى إلا إرسال الجيش، فأبلغه أن يولي رجلاً غير أسامة أقدم سنًا منه.

فلما سمع الصديق رضي الله عنه ذلك من عمر رضي الله عنه وثب[1] إليه، وأخذ بلحيته، وقال له والغضب يملأ وجهه: ثكلتك أمك[2] وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟!! والله لا يكون ذلك أبدًا. ولما عاد عمر رضي الله عنه إلى الناس سألوه: ما صنعت؟ فقال له: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، فقد لقيت ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

***

انطلق الجيش موليًا وجهه شَطْر[3] حدود دولة الروم حسبما أمر رسول الله ﷺ وخرج الصديق رضي الله عنه إلى المعسكر يودع الجيش ماشيًا على قدميه، وأسامة رضي الله عنه راكب على فرسه، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل. فقال أبو بكر: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.

وإنما فعل الصديق رضي الله عنه ذلك ليعلى من قدر قائد الجيش في أعين جنوده. ثم أوصاه قائلاً: امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به، ثم أغز حيث أمرك رسول الله ﷺ، ثم مال عليه وهمس في أذنه يستأذنه في ترك عمر بن الخطاب رضي الله عنه له، وقال له: إن رأيت أن تعينني بعمر استشيره وأستعين به فإنه ذو رأى، ومنا صح للإسلام فافعل.

فأذن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- قائد الجيش لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالبقاء.. ويمضي الجيش في سبيل الله، ويعود بعد أن أدى مهمته، وألقى الرعب في قلوب الروم، وزعزع[4] هيبتها، وأوضح لضعاف الإيمان والمرتدين من العرب مدى قوة هذه الدولة وجيشها، فعادوا مرة أخرى إلى واحة الإيمان، وثبتوا على إسلامهم.

---

(1) وثب: نهض وقفز.

(2) ثكلتك أمك: فقدتك أمك، وهي تعني مجرد الدعاء.

(3) شَطْر: ناحية وتجاه.

(4) زعزع: حرك بشدة، والمعني هز هيبتها وأحرجها.

وعاد الجيش بلا ضحايا يحمل الغنائم، وقال عنه المسلمون يومها « **ما رأينا جيشاً أربى وأسلم من جيش أسامة**».

***

تولي أمور المسلمين بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يعرف مثل غيره من الصحابة ما لأسامة من الفضل، وكان يحبه لحب رسول الله ﷺ له، فقد حدث أن قسّم مالاً فأعطى أسامه رضي الله عنه أكثر مما أعطى ابنه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما-. فقال عبد الله: « **يا أبت، فرضت لأسامة بن زيد أكثر مما فرضت لي، فما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لك، وما كان له من الفضل ما لم يكن لي**». وإنما قال ذلكم عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- ، لأن أباه كان يعطي ويفضّل في العطاء وفق فضل الصحابة، وسبقهم في الإسلام، فخشي أن يكون مكانه متأخراً. ولكن أباه أجابه: « **إن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وهو كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك**».

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسر لرؤيته، ويهش لقدومه، ويلاقيه بالترحاب وهو يقول: أهلاً بأميرى.

وتمضي السنوات وتحدث الفتنة بين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما-، ويعتزلها أسامة رضي الله عنه ، ولاينضم لأي الفريقين، ولا لأي الجيشين، فهما طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وقد تعهد قبل ذلك يوم أن تلقي الدرس البليغ من رسول الله ﷺ ألا يقتل رجلاً يشهدأن لا إله إلا الله. وحين عاتبه على بن أبي طالب رضي الله عنه على ذلك، قال له: والله لو أدخلت يدك في فم تنِّين[1] لأدخلت يدي معها، ولكنك سمعت ما قاله رسول الله ﷺ لي حين قتلتَ ذلك الرجل الذي نطق بالشهادة.

واعتزل أسامة الفتنة، ولم يشهد شيئًا من هذه الحروب، ولم يشهر سيفه في وجه مسلم حتى لبي نداء ربه تعالى في العام الرابع والخمسين للهجرة في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه . ودفن بالبقيع[2] مع صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) التِّنِّين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد وأجنحة نسر، وذيل أفعى.

(2) البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي مدفن الصحابة، دفن فيها حوالي عشرة آلاف صحابي.

• **من فضائل أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - :**

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «**إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ. أو من أحب الناس إلي، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاستوصوا به خيراً**» رواه الشيخان

٢ - نظر عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يومًا إلى محمد بن أسامة بن زيد فقال : « لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه» رواه البخاري .

* * *

(١٨) جُلَيْبيب رضي الله عنه

لا نعرف عنه سوي اسمه فقط، أمّا فضله فيكفيه قول النبي ﷺ له : «هذا مني، وأنا منه» فقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ حتى رزقه الله تعالى الشهادة.

كيف استشهد؟ وما هي بطولته؟ وكيف كان زواجه؟ وما هو حال زوجته من بعده؟ واصل القراءة لتعرف الإجابة.

* * *

اسمه جليبيب، رجل من الأنصار قصير القامة، دميم[1] الوجه، ولكن شجاعته جعلت قامته تطاول العمالقة الطوال، والإيمان الذي ملأ قلبه أشرق نوره على وجهه فأضاءه، والعبرة بالقلوب لا بالأشكال، فالله تعالى لا ينظر إلى الصور والإشكال، إنما ينظر إلى الأفعال والأعمال.

أراد جليبيب رضي الله عنه الزواج، فخطب له رسول الله ﷺ امرأة من الأنصار، فقال أبوها: يا رسول الله، دعني حتى أستأمر أمها واستشيرها. فقال ﷺ : فنعم إذن. وذهب الرجل إلى امرأته، وقال لها: إن رسول الله ﷺ خطب ابنتنا إلى جُلَيبيب. فقالت: المرأة : جليبيب! وقد جاءها فلان وفلان. وكأن الرجل وامرأته كرها زواج ابنتيهما من جليبيب رضي الله عنه ، أو خافا ألا تقبل بهذا الرجل زوجًا، لقصره ودمامته، ولكن البنت التي قد ملأ الله قلبها بالإيمان عندما سمعت حوار أبويها خرجت عليهما وهي تتلو قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

رضيت وسلّمت لما يرضى لي به رسول الله ﷺ .

فقال أبوها: أنت وشأنك، وأنا ذاهب إلى رسول الله ﷺ لأبلغه. وذهب الرجل، وعلم الرسول ﷺ بما قالت البنت، فدعا لها، وقال: « **اللهم اصبب عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا**»[2]

وتزوج جليبيب رضي الله عنه ، وعندما دعي داعي الجهاد لبي النداء كغيره من أبطال الإسلام.

---

(1) دميم الوجه : قبيح المنظر والوجه.

(2) كدًا : متعبًا.

خرج جُلَيْبيب مع رسول الله ﷺ في إحدى الغزوات، ولما فرغ القتال بانتصار المسلمين كعادتهم، سأل رسول الله ﷺ : **هل تفقدون من أحد؟** فقالوا: نفقد والله فلانًا وفلانًا. قال ﷺ : **لكني أفتقد جليبيبًا، فاطلبوه**، فذهب بعض الصحابه يبحثون عنه، فوجدوه شهيدًا قد قتل سبعة ثم قتلوه. فأخبروا رسول الله ﷺ ، فأتى إليه ووقف عليه، وقال: **قتل سبعة ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه. هذا مني وأنا منه.** ثم أخذه رسول الله ﷺ ووضعه على ساعده، ريثما يحفر له قبره[1].

ودفن رضي الله عنه بعد أن شهد له رسول الله ﷺ بأنه على طريقته ومنهجه، فهنيئًا له هذه الشهادة.

أما زوجته فببركة دعاء النبي ﷺ لها « **اللهم اصبب عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا**» كانت من أكثر نساء الأنصار مالاً، وأكثرهم إنفاقًا في سبيل الله، وإعطاءً للفقراء والمساكين والمحتاجين.

* * *

(1) ريثما يحفر له قبره: مقدار ما يحفر له قبره.

(19) عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه

هو أيضًا مؤذن الرسول ﷺ، أسلم مبكرًا، وحرص على تلقى العلم، وكان رسول الله ﷺ يكرمه، لأن الله تعالى عاتبه فيه، وأنزل قصة هذا العتاب قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، ومن تقدير الرسول ﷺ له استعمله على المدينة المنورة مرات عديدة عند خروجه للغزوات.

والعجيب أنه رغم ذهاب بصره سأل الله تعالى أن يرزقه الشهادة. وقد أكرمه الله تعالى بها فمات شهيداً فى سبيل الله.. كيف ذلك؟، وما هى قصة حياته وكفاحه؟. هذا ما سنتعرف عليه خلال القراءة.

***

اسمه عبد الله، أو عمرو بن قيس، وهو ابن أم مكتوم، حيث أن أمه عاتكة بنت عبد الله كُنيت بأم مكتوم؛ لأنها ولدته أعمى، وهو ابن خال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضَى الله عنها.

وما إن ظهرت دعوة الإسلام، وأشرق نورها، حتى سار ابن أم مكتوم فى رحابه، وصار من اتباعه وحملة هذا النور، فقد أسلم رضي الله عنه مبكرًا، وتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى شأنه شأن غيره من أوائل المسلمين، وكان حريصًا على تعلم أحكام الدين، والإقبال على ما يتنزل على رسول الله ﷺ من آيات بينات، يقرأها ويحفظها، ويعمل بما فيها، فما وجد فرصة إلا وأقبل على رسول الله ﷺ يسأله.

وذات يوم كان رسول الله ﷺ مع رجل أو رجال من كبار المشركين وزعمائهم يعرض عليهم الإسلام، ويتلوا عليهم قرآن ربه عسى قلوبهم أن تلين وتبصر طريق الخير والنور فتسير فيه، أو يكفوا أذاهم عنه وعن أصحابه...

دخل ابن أم مكتوم رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، أرشدنى وعلمنى مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأقبل على زعماء قريش يعرض عليهم الإسلام، وانصرف الرجل حزينًا. ثم نزل القرآن الكريم يعاتب رسول الله ﷺ.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ

الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 16:1].

هكذا قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة فى حق هذا الرجل الجليل، الحريص على العلم.. بعدها كان رسول الله ﷺ يكرمه أعظم إكرام، ويسأل عنه إذا غاب، بل إنه بعد الهجرة استخلفه على المدينة المنورة مرات عديدة.

***

بعد اشتداد الأذى بالمسلمين أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة. فكان ثانى من يهاجر إليها بعد مصعب بن عمير رضي الله عنه. وعندما بنى الرسول ﷺ مسجده كان المسلمون يؤدون الصلاة جماعة فيه، ويتلقون الدروس وأحكام الدين، ويستمعون لجديد الآيات المنزلة. وذات يوم جاء ابن أم مكتوم رضي الله عنه إلى النبى ﷺ وأخبره أنه أعمى ليس له قائد يقوده إلى المسجد، وسأله أن يرخص له فى التخلف عن صلاة الجماعة، وأن يصلى فى بيته. فسأله الرسول ﷺ: «**هل تسمع النداء بالصلاة أى الآذان**». فقال: نعم يا رسول الله. قال: «**فأجب**». أى فعليك أن تجيب النداء وتأتى المسجد لصلاة الجماعة، ولا عذر لك طالما سمعت الآذان.

وعندما شُرع الأذان للصلاة كان بلال بن رباح رضي الله عنه، وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه مؤذنيْن للمسلمين، فكان بلال يؤذن وابن أم مكتوم يقيم الصلاة، وفى شهر رمضان كان هناك آذان للسحور يؤذن به بلال رضي الله عنه، وآذان للإمساك يؤذن به ابن أم مكتوم رضي الله عنه.

وعندما فرض الله الجهاد على المسلمين دفاعًا عن أنفسهم، وفتحًا لأبواب الدعوة، وقتالاً لمن يصدون عن سبيل الله، ويمنعون وصول النور لمن أعماه الظلام وأرهقه الجهل.

عرف ابن أم مكتوم فضل الجهاد وما أعده الله للمجاهدين والشهداء فى سبيله فتمنى أن لو كان مبصرًا يستطيع الجهاد، وذهب إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت. فنزل قول الله تعالى فى حقه يوضح أنه ليس عليه شئ لعذره ﴿**لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي**

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95] فسُر ابن أم مكتوم رضي الله عنه ؛ لأن الله تعالى أنزل عذره، وعذر غيره من أهل الأعذار. بل إن رسول الله ﷺ قال فى حق هؤلاء الذين يحبسهم [1] العذر عن الجهاد، سواء كان العذر عمىً أو مرضًا أو عجزًا أو عدم وجود ما يُحملون عليه، قال لأصحابه: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه**». قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟! قال: «**نعم حبسهم العذر**» رواه البخارى وأبو داود.

❊ ❊ ❊

مرت السنوات إلى أن تولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفى هذه السنوات كانت نفس ابن أم مكتوم رضي الله عنه تتوق [2] للجهاد فى سبيل الله، ويتمنى الموت شهيداً لينال مراتب الشهداء. وقد واتته الفرصة فى العام الرابع عشر الهجرى عندما خاض المسلمون معركة القادسية ضد جيوش الفرس، فقد خرج مع الجيش وهو يلبس ملابس الجهاد، وقد حدد لنفسه عملاً، وهو أن يحمل اللواء، فهو أعمى لا يستطيع الفرار.

وبدأت المعركة وحمى وطيسها [3] واستمرت ثلاثة أيام، وانجلت فى النهاية عن رفع راية التوحيد على بلاد فارس، وسقوط راية الكفر والوثنية. ومات فى المعركة ابن أم مكتوم رضي الله عنه شهيداً، ونال ما كان يرجوه ويصبو [4] إليه، ووجبت له الدرجات العالية مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقًا.

❊ ❊ ❊

---

(1) حبسهم: منعهم وقيدهم.

(2) تتوق: تشتاق.

(3) حمى وطيسها: اشتدت وجدّت.

(4) يصبو: يحن ويتشوّق.

من منا لم يسمع عنه رضي الله عنه، بل من منا لا يحفظ بعض ما رواه من أحاديث عن النبى ﷺ. إنه سيد الحفاظ، وكبير المحدثين، وشيخ رواة السنة، وأحد المكثرين رواية للحديث رغم المدة القصيرة التى لازم فيها رسول الله ﷺ، وهذا يدل على حرصه على العلم، فقد انقطع له، فلم تشغله تجارة ولا زراعة، ويدل على قوة حفظه، فقد وهبه الله تعالى ذاكرة قوية تسجل كل ما تسمع دون أدنى تغيير. وما من أحد من المسلمين إلا ولأبى هريرة رضي الله عنه فضل عليه، فما من عالم إلا وأخذ عنه، وما من راو إلا وروى عنه، ولذلك فسجل حسناته مفتوح تسجل فيه حسنات من يتعلمون من مروياته إلى يوم القيامة، فناشرو العلم ومعلموا الناس الخير حسناتهم فى ازدياد طالما أن علمهم منتشر وخيرهم باق. وشاءت إرادة الله تعالى أن تزداد حسنات هذا الصحابى الجليل عن طريق أخذ حسنات من يهاجمونه، كما جاء ذلك فى حديث المُفْلِس.

والهجوم عليه يعنى الهجوم على السُّنّة نفسها والتشكيك فيها عن طريق التشكيك فى نقلتها ورواتها.

ما هى المدة التى لازم فيها أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ؟، ولماذا كُنى بأبى هريرة؟، وكيف كانت حياته وجهاده؟، وما سبب كثرة روايته للحديث؟ إجابات هذه الأسئلة وغيرها سنتعرف عليها من خلال مواصلة القراءة.

***

اختلف فى اسمه اختلافًا كثيرًا سواء قبل إسلامه أو بعد إسلامه فقبل إسلامه قيل كان اسمه عبد عمرو أو عمير أو عبد شمس، وقيل غير ذلك. وبعد إسلامه قيل كان اسمه عبد الله أو عبد الرحمن، وقيل غير ذلك، وأن الذى سماه عبد الله أو عبد الرحمن هو النبى ﷺ.

اشتهر بكنيته أكثر من اسمه، حتى صار لا يعرف إلا بها، فهو أبو هريرة الدروس ودوس إحدى قبائل تهَامه، وقد كُنى بذلك لقطة صغيرة كانت معه يحنو عليها ويطعمها، ويعتنى بها، ويَرعاها، ويحملها معه أينما سار، والهريرة هى الهرة أو القطة الصغيرة.

تبدأ حياة أبى هريرة الحقيقية بعد إسلامه، فقد أسلم فى العام السابع للهجرة قبيل غزوة خيبر بأيام، وجاء المدينة المنورة مسلمًا ومبايعًا ومهاجرًا إلى رسول الله ﷺ، ثم خرج معه إلى غزوة خيبر، وشهدها وعلى ذلك فهى أولى مشاهده، فلم يشهد بدرًا ولا أحدًا ولا الخندق ولا الحديبية، فقد فاته شرف حضور هذه المشاهد العظيمة.

بعد رجوعه من غزوة خيبر لازم النبى ﷺ ملازمة الرجل لظله، وكان لا يتركه إلا ساعة النوم فقط، يسير معه أينما سار، ويجاهد بجواره إذا دعى إلى الجهاد، ولذلك فقد شهد فتح مكة المكرمة فى العام الثامن للهجرة وشهد غزوة حُنين والطائف.

فى ذلك الوقت لم يكن لأبى هريرة زوج ولا ولد، إنما كانت له أم لازالت على شركها، دعاها إلى الإسلام أكثر من مرة فأبت، فأشفق عليها أبو هريرة أن تظل على شركها، فذهب إلى النبى ﷺ يشكو إليه حال أمه، ويسأله الدعاء لها بالهداية، والدخول فى دين الله. فقال النبى ﷺ: «**اللهم اهد أم أبى هريرة للإسلام**» ففرح أبو هريرة بهذه الدعوة، إنه يعلم أنها دعوة مباركة سرعان ما ستتحقق. فخرج مسرعًا إلى أمه كى يبشرها بدعاء الرسول ﷺ لها، فوجد الباب مغلقًا، وسمع خضخضة الماء[1]، وعلمت أمه وقوفه أمام الباب، فنادته قبل أن يدخل: مكانك يا أبا هريرة. ثم لبست ثيابها وخمارها وفتحت له وهى تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فاحتضنها أبو هريرة رضي الله عنه، وأكبّ على يديها وقبلهما. ثم غدا على رسول الله ﷺ جريًا حتى دخل عليه وهو يبكى من شدة الفرح والسرور، وهو يقول: يا رسول الله، أبشر، فقد أجاب الله دعوتك، وهدى أم أبى هريرة للإسلام. يا رسول الله، ادع الله أن يحببنى وأمى إلى المؤمنين والمؤمنات. فدعا النبى ﷺ: «**اللهم حبّب عُبَيْدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة**» واستجاب الله تعالى لدعوة نبيه ﷺ، فلا يسمع بأبى هريرة مؤمن إلا ويعرف فضله وقدره فيحبه، ولا يهاجمه إلا منافق جاهل لا يعرف للصحابة قدرهم، ومكانتهم العالية، ونحن نُشهد الله أننا نحب أبا هريرة وأمه والصحابة وكل المؤمنين.

---

(1) خضخضة الماء: صوت الماء إذا تحرك واضطرب وترجرج.

كان أبو هريرة رضي الله عنه رجلاً فقيراً من أهل الصُّفّة الذين يسكنون مسجد رسول الله ﷺ وأهل الصُّفّة هم فقراء المهاجرين ممن لم يكن لهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه.

بلغ من جوع أبى هريرة رضي الله عنه أنه كان يربط الحجر على بطنه، كما يروى ذلك عن نفسه، وأحيانًا كان يغمى عليه من شدة الجوع.

رق له رسول الله ﷺ يومًا عندما رآه وعرف ما به، فأشار إليه باتباعه إلى بيته، فوجد قدحًا به لبن، فسأل ﷺ: «**من أين لكم هذا اللبن؟**» وعلم أنه أهدى له. فقال لأبى هريرة رضي الله عنه: «**انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لى**». فقال أبو هريرة رضي الله عنه فى نفسه: واحزناه! لقد كنت أريد شربة من اللبن أتقوى بها بقية يومى، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله. ثم انطلق يدعوهم، فجاءوا وأخذوا مجلسهم من بيت رسول الله ﷺ، فأعطى الرسول ﷺ قدح اللبن إلى أبى هريرة رضي الله عنه، وقال له: «**خذ فاعطهم**». فدار أبو هريرة رضي الله عنه بالقدح عليهم جميعًا. فكان الرجل يأخذ القدح فيشرب حتى يشبع ويرتوى، حتى أتى على آخرهم. ثم أعطاه لرسول الله ﷺ وما به إلا فَضْله[1] فنظر إليه رسول الله ﷺ وتبسم، وقال له: «**أبا هر**». فأجاب: لبيك رسول الله. قال: «**بقيت أنا وأنت**». فقال: صدقت يا رسول الله. قال: «**فاقعد فاشرب**». فقعد أبو هريرة رضي الله عنه فشرب، ومازال رسول الله ﷺ يقول له: «**اشرب**» حتى قال: والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا[2].

وهكذا كان أبو هريرة رضي الله عنه لا يريد من حطام الدنيا شيئًا سوى ملء بطنه، فقد فرّغ نفسه تمامًا لملازمة النبى ﷺ، والأخذ عنه، وحفظ حديثه، فلم تشغله التجارة كإخوانه المهاجرين، ولم تشغله الزراعة كإخوانه الأنصار، إنه يعلم أن كثيرًا من الفضل فاته، فهو لم يشهد غزوة بدر، ولم ينل ما ناله من شهدها من الفضل ومغفرة الذنوب، ولم يشهد بيعة الرضوان كذلك، وأدرك أبو هريرة رضي الله عنه أن الدور الذى يخدم به الإسلام هو نقل سيرة رسول الإسلام وأقواله وأفعاله وتقريراته وأوامره ونواهيه إلى الأجيال القادمة، ولن يتأتى هذا إلا بطول الملازمة وكثرة السؤال، والحفظ الجيد.

---

(1) فَضْلة: ما تبقى بعد الشراب.

(2) مسكلًا: طريقًا، والمعنى أن بطنه امتلأت تمامًا، بحيث أصبحت لا تتسع لشراب آخر.

فأما عن طول الملازمة وكثرة السؤال فقد رأى فيه الرسول ﷺ الحرص على سماع الحديث، ويدل على ذلك ما رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**».

فالرسول ﷺ شهد له بالحرص على سماع الحديث، والحرص على العلم والمعرفة.. وأما عن الحفظ الجيد فقد وهبه الله تعالى ذاكرة قوية يستعصى على النسيان النيل منها ببركة دعاء النبى ﷺ يوم أن دعا له.

***

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى السنة الحادية عشرة ولذلك فالمدة التى صحب فيها أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، قضاها كلها بجواره سائلاً ومستمعًا وحافظًا لكل كلمة بدقة، فقد استمع منه إلى أحاديث كثيرة، واستمع كذلك من صحابته إلى وقائع لم يشهدها، فهو رجل يحب العلم والمعرفة، وهو أحد ورثة الأنبياء.

كان يجلس فى مسجد رسول الله ﷺ، ويروى أحاديثه، حتى عجب بعض الصحابة من كثرة أحاديثه ومروياته، وتساءلوا فيما بينهم: متى سمع أبو هريرة هذه الأحاديث؟! وكيف وعاها؟!!. وقالوا: لقد أكثر الحديث عن النبى ﷺ. فلما سمع أبو هريرة رضي الله عنه مقالتهم تلك دافع عن نفسه قائلاً: «إنكم تقولون إن أبى هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد ـ أى بينى وبينكم ـ كنت رجلاً مسكينًا، أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطنى، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق[1] بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وقال رسول الله ﷺ: «**من بسط ثوبه فلن ينسى شيئًا سمعه منى**» فبسطت ثوبى حتى قضى حديثه، ثم ضممته إلىّ، فما نسيت شيئًا سمعته بعد، وأيْم الله ـ قسم ـ لولا آيتين فى كتاب الله ما حدثتكم بشىء ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ**

(1) الصفق: البيع والشراء وعقد الصفقات.

فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 160,159].

وهكذا يوضح لنا أبو هريرة رضي الله عنه سبب حفظه، فهو أولاً ببركة دعاء النبى ﷺ له . وثانيًا عدم انشغاله بأمور التجارة والزراعة مما يجعل ذهنه صافيًا متفرغًا تمامًا للعلم والأخذ والنقل والحفظ .

ويوضح لنا أيضًا سبب كثرة روايته، فهى أولاً بسبب طول ملازمته وخدمته للنبى ﷺ ، وثانيًا خوفه من كتمان علم علمه الله تعالى إياه .

وكما أحب أبو هريرة العلم لنفسه، فقد أحبه لغيره. فقد رأى جماعة من المسلمين انصرفوا عن مجالس العلم، وانشغلوا بأمور الدنيا، فنادى عليهم: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ فاجتمعوا إليه وقالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟. قالوا: وأين هو؟ قال وهو يشير ناحية المسجد النبوى: فى المسجد. . فخرجوا سراعًا يقصدون المسجد، وبقى أبوهريرة رضي الله عنه ينتظرهم. فلما رجعوا قال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد، فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئًا يقسم. فقال لهم: وما رأيتم فى المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يذكرون الحلال والحرام. فقال لهم: ويحكم! فذاك ميراث محمد ﷺ

***

ولم يكن أبو هريرة رضي الله عنه عالمًا، روايًا للحديث النبوى فقط، بل عاملاً بما ينقله ويحفظه، عابدًا لله رب العالمين، ليس وحده بل أهل بيته معه، فكان ليلهم لا تنقطع فيه العبادة والذكر والقيام. فقد قسّم الليل مع زوجته وابنته، فكان يقوم ثلث الليل الأول، وتقوم زوجته الثلث الثانى، وتقوم الابنة الثلث الأخير.

وتمضى الأيام بأبى هريرة، ويوليه عمر بن الخطاب البحرين، فيقوم فيها بشرع الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ ، ويعلم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لأبى هريرة رضي الله عنه مال، وكان عمر رضي الله عنه شديد المحاسبة لولاته، يسأل عن كل درهم جمعوه، والويل كل الويل لمن يثبت أنه استغل منصبه فى ذلك.

حقًا إنه أتعب مَن بعده.

استدعاه عمر رضي الله عنه وسأله عن هذا المال الذى اجتمع له، وقال له: يا عدو الله، وعدو كتابه، أسرقت مال الله؟! انزعج أبو هريرة رضي الله عنه من هذا الاتهام الخطير، ودفعه عن نفسه بقوله: ما أنا بعدو الله، ولا بعدو كتابه، وما أنا بالذى يسرق مال الله. فقال عمر: إذًا فمن أين اجتمع لك هذا المال؟ أجاب أبو هريرة: خيل لى تناسلت، وعطايا تلاحقت. فقال عمر: إذًا فادفعها إلى بيت مال المسلمين. فدفع أبو هريرة المال ووضعه فى بيت مال المسلمين، ثم رفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم اغفر لأمير المؤمنين. . وبعد مدة من الزمان أرسل إليه عمر رضي الله عنه يعرض عليه الإمارة مرة أخرى. فرفض، ولما سأله عمر رضي الله عنه عن السبب أجابه: يا أمير المؤمنين، كى لا يشتم عرضى، ويضرب ظهرى، وأخاف أن أقضى بغير علم، وأقول بغير حلم. . . ويتفرغ أبو هريرة رضي الله عنه تمامًا لنقل أحاديث رسول الله ﷺ وروايتها للناس، ولطلاب العلم حتى انه روى عنه نحو ثمانمائة أو أكثر من الصحابة والتابعين.

***

وتمضى الأيام والسنوات، وتأتى السنة التاسعة والخمسون بعد الهجرة، وفيها بلغ أبو هريرة عامه الثامن والسبعين، ويمرض الصحابى الجليل، ويشتد به المرض. يدخل عليه جماعة يعودونه فى مرضه، فيجدونه يبكى.

قالوا له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟ فقال: أمَا إنى لا أبكى جزعًا من الموت ولا على دنياكم هذه، إنما أبكى طول السفر، وقلة الزاد، وشدة المفازة[1]، وها أنا ذا فى نهاية طريق لا أدرى أإلى الجنة أم إلى النار. فقال أحدهم: شفاك الله يا أبا هريرة. فتحركت شفتا أبى هريرة رضي الله عنه هو يناجى ربه: «**اللهم إنى أحب لقاءك، فأحبب لقائى**» ثم نطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، بعدها فارق الدنيا التى ملأها علمًا، وصعدت روحه إلى بارئها لتكون بجوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فارق أبو هريرة رضي الله عنه الدنيا بجسده، أما روحه فباقية بيننا، وصحيفة حسناته لازالت مفتوحة بسبب ما نقله إلينا من أحاديث كثيرة عن رسولنا محمد ﷺ بلغت

---

(1) المفازة: الصحراء أو المهلكة.

أكثر من **5000** (خمسة آلاف) حديث لازالت تُروى، ويُعمل بها إلى اليوم.

فرحم الله تعالى أبا هريرة ورضى عنه، ونفعنا بعلمه، وبمروياته، وقطع كل لسان يتهمه أو يتناوله بسوء.

*** من فضائل أبى هريرة رضي الله عنه :**

(1) دعا له النبى ﷺ : «**اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة**».

(2) قال عنه الشافعى: «أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره».

***

(21) سعد بن معاذ رضي الله عنه

لا نعلم أحد من الصحابة اهتز لموته عرش الرحمن إلا سعد بن معاذ رضي الله عنه . إنه سيد الأوس، وخيرة شبابها، وأحد سادة الأنصار، عمره فى الإسلام حوالى ست سنوات، فقد أسلم فى العام الواحد والثلاثين من عمره واستشهد فى العام السابع والثلاثين من عمره، وما بين لحظة إسلامه، ولحظة استشهاده عاش السنوات الست بجوار رسول الله ﷺ مجاهداً فاتحًا داره لأهل الله جميعًا .

كيف أسلم؟ وما هى قصة إسلامه؟ وما هى مواقفه يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق؟ وكيف استشهد . هذا ما سنتعرف عليه من خلال مطالعتنا لقصة حياته .

* * *

أرسل رسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى أهل المدينة المنورة سفيراً وداعيًا إلى دين الله، ونشر النور بين أهلها، فنزل ضيفًا على أسعد بن زرارة رضي الله عنه ابن خالة سعد بن معاذ رضي الله عنه . ،أخذ يحدث أهل المدينة عن الإسلام وأحكامه، والتوحيد وحقيقته، فأسلم منهم من أسلم .

وذات يوم خرج أسعد بن زرارة رضي الله عنه بمصعب بن عمير رضي الله عنه إلى ديار بنى عبد الأشهل، وهم قوم سعد بن معاذ رضي الله عنه فدخلا بستانًا وجلسا فيه، فاجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسمع بهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما، وكانا يومها لازالا على شركهما، فقال سعد لأسيد : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا إلى ديارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن العودة مرة أخرى، فإنه لولا أن سعد بن زرارة ابن خالتى لذهبت بنفسى وكفيتك ذلك .

أخذ أسيد بن حضير رضي الله عنه حربته وسار نحو مجلس مصعب ومن معه من المسلمين فلما رآه أسعد بن زرارة رضي الله عنه مقبلاً، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . فجاء أسيد ووقف أمامهما وهو يقول : ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . فابتسم مصعب رضي الله عنه وهو يرد : أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

فقال أسيد: لقد أنصفت. ثم ركز حربته وجلس يستمع. فاستعان مصعب بالله تعالى، وحدثه عن الإسلام وفضائله وعرضه عليه، وتلا عليه القرآن الكريم، فدخل النور قلب أسيد، وأشرق وجهه وهو يقول: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول فى هذا الدين؟، فأجابه مصعب: تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم تصلى لله رب العالمين.

وذهب أسيد رضي الله عنه ليفعل ذلك، ثم عاد إليهما، وصلى معهما ركعتين. ثم قال: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما ما تخلف عنه أحد من قومه، إنه سعد بن معاذ، سأرسله إليكما الآن فكلموه. ثم أخذ حربته وسار نحو سعد بن معاذ.

***

كان سعد رضي الله عنه جالسًا وسط قومه ينتظر معهم عودة أسيد، فلما رآه مقبلاً قال لقومه: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به. وما أن وصل أسيد حتى سأله سعد: ماذا فعلت؟ فأجاب: لقد كلمت الرجلين فما رأيت بهما بأسًا، ونهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت. وبعد كلام دار بينهما أخذ سعد حربته وهو يقول لأسيد: والله ما أراك فعلت شيئًا. وسار نحو مصعب بن عمير رضي الله عنه ومجلسه. فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلاً مال على أذن مصعب وهمس فيها: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

وصل سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى حيث المجلس، وقال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أتغشانا فى ديارنا بما نكره؟ فقال مصعب: أو تقعد فتجلس وتستمع فإن وجدت أمرًا حسنًا رضيته وقبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، وانصرفنا. فقال سعد: لقد أنصفت. ثم ركز حربته، وأخذ مكانه من المجلس. ومرة أخرى يعرض مصعب رضي الله عنه الإسلام بأحكامه الراقية وتعاليمه السامية وأوامره الحسنة، ويتلو القرآن بصوته العذب الشجى، فما كان من سعد إلا الإستماع بخشوع والإصغاء بتدبر وإجلال، وما كان لقلبه إلا أن يتفتح للنور ليدخله، وما كان لعينيه إلا أن تبصران الحق. باختصار ما كان له إلا أن ينقاد للحق، حتى أن من كان فى المجلس قالوا: عرفنا والله الإسلام فى وجه سعد قبل أن يتكلم.

بعد هذه اللحظات العظيمة، تكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه سائلاً: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ فأجابه مصعب كما أجاب قبله أسيد بن حضير رضي الله عنه: تغتسل وتتطهر وتنظف ثيابك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى لله رب العالمين.

قام سعد من فوره لفعل ذلك، ثم عاد بعد أن اغتسل وتطهر ونطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم أخذ حربته وتوجه نحو قومه ومعه أسيد بن حضير.

***

ملء النور جوانح[1] سعد بن معاذ رضي الله عنه فقرر أن يجعل هذا النور مشرقًا فى قلوب قومه كما أشرق فى قلبه هو. ولذلك جمعهم، وقال لهم: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ فأجابوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا. قال لهم: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا وتؤمنوا بالله ورسوله.

وكان من بركة الله تعالى أنه ما أمسى القوم إلا والإسلام دخلهم جميعًا رجالاً ونساءً. إنهم يعلمون أن سعدًا رجلٌ له كلمته النافذة، ورأيه السديد، وعقله الراجح؛ ولذلك فقد ساروا وراءه عالمين أنه ما يدعوهم إلا إلى الصواب والفلاح. . . . وبعد أن استقر الإسلام فى المدينة المنورة وفشا[2] بين الأوس والخزرج هاجر الرسول ﷺ إليها، وآخى بين المهاجرين والأنصار. وفى العام الثانى للهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، فقد خرج المسلمون فى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً يواجهون ألفًا من مشركى مكة، وجمع الرسول ﷺ أصحابه، وعقد معهم مجلسًا استشاريًا ضم المهاجرين والأنصار، ليتشاوروا فى هذا الأمر، فإنه ﷺ عندما بايعه الأنصار عاهدوه أن ينصروه ويدافعوا عنه إذا وصل إلى ديارهم، وداخل حدود مدينتهم، وليس عليهم أن يسيروا إلى بلاد العدو.

نظر الرسول ﷺ إلى صحابته ـ وكان أكثرهم من الأنصار ـ فقال لهم: «**أشيروا علىّ أيها الناس**». فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتكلم وأحسن الكلام. ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتكلم وأحسن الكلام. ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول

(1) جوانح: جمع جانحة، وهى الضلع القصيرة ما يلى الصدر، والمعنى ملء النور صدره وكيانه.
(2) فشا: انتشر.

الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : 24] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ومرة أخرى يقول الرسول ﷺ : «**أشيروا علىّ أيها الناس**» . فانتبه سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى ما يعنيه الرسول ﷺ ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . فقال ﷺ : «**أجل**» . فقال سعد : أمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك مواثيقنا [1] على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا . إنّا لصُبُر [2] عند الحرب ، وصُدُق عند اللقاء [3] ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله . إنها حقاً كلمات زعيم ومجاهد وهب حياته لله تعالى ، كلمات تبعث السرور فى النفس ، والطمأنينة فى القلب ، والانشراح فى الصدر ، وتبين صدق الإيمان والاخلاص ومدى التضحية فى سبيل الله ورسوله ؛ ولذلك فعندما استمع رسول الله ﷺ لهذه الكلمات امتلأ وجهه بالسرور وانشرح لمقالة سعد الصادقة الشجاعة ، فالتفت إلى القوم وبشرهم قائلاً : «**سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**» .

وسار الجيش نحو بئر بدر ، وبعد أن عسكر قام سعد رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يقترح عليه أن يبنى له عريشًا يكون فيه مع الركائب [4] ، فتقدم إليه ، وقال له : يا نبى الله ، ألا نبنى لك عريشًا [5] تكون فيه مع الركائب ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على الركائب فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم . فأثنى الرسول ﷺ ودعا له بخير . ثم أمر ببناء العريش .

وقف سعد رضي الله عنه حارسًا عليه ، متوشحًا سيفه ، يرى بعينيه أحداث المعركة ،

---

(1) مواثيقنا : جمع ميثاق ، أى عهودنا .

(2) صُبُر : كثيرو الصبر ، معتادون عليه .

(3) صُدُق عند اللقاء : ثابتون عند لقاء الأعداء .

(4) الركائب : جمع ركوبة ، وهى الدواب المخصصة للركوب ، وهى هنا البعير .

(5) العريش : وهو شبه الخيمة ، يعمل للاستظلال به . يجمع على عُرُش .

ونصر الله للمسلمين، وقتل وأسر صناديد[1] قريش. ونظر رسول الله ﷺ ورأى فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «**والله لكأنك تكره ما يصنع القوم؟**» فقال: أجل والله يا رسول الله، فهذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان[2] فى القتل بأهل الشرك أحب إلىّ من استبقاء الرجال.

. . . وبعد انتهاء المعركة عاد المسلمون المنتصرون إلى المدينة المنورة يواصلون بناء دولة الإسلام، حتى إذا مر عام كانت غزوة أحد التى شهدها أيضًا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وثبت مع من ثبت مع رسول الله ﷺ، يدافع عنه، ويدفع عنه سهام المشركين.

وفى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة كانت غزوة الخندق التى اتضحت فيها بطولة ورجولة سعد بن معاذ رضي الله عنه.

***

خرج بعض زعماء اليهود إلى قريش، وبعض قبائل العرب يحرضونهم على حرب المسلمين، ويدعونهم لغزو المدينة، مع الوعد بمساعدتهم فى دخولها. وعلم رسول الله ﷺ بأن قريشًا ومعها قبيلة غطفان قد خرجوا نحو المدينة فى نحو عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان بن حرب، فقام المسلمون بحفر خندق حول المدينة يحول دون دخول المشركين إليها.

فى هذه اللحظات العصيبة نما إلى علم الرسول ﷺ أن يهود بنى قريظة خانوا عهدهم مع المسلمين، وتحالفوا مع المشركين لحصار المسلمين من الداخل والخارج، فأرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوّات بن جبير رضى الله عنهم إلى كعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة لاستجلاء الأمر، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟**».

---

(1) صناديد: جمع صنديد، وهو الشديد.

(2) الإثخان: المبالغة فى القتل.

ذهب سعد بن معاذ رضي الله عنه ومن معه فقابلهم اليهود بكل صلف[1] وغرور، وأعلنوا في وجوههم نقضهم العهد قائلين: من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فثار سعد بن معاذ رضي الله عنه في وجوههم وشاتمهم وشاتموه، فأخذ سعد بن عبادة رضي الله عنه بيده بعيداً عنهم، وهو يقول له: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة.

وأقبل الجميع على رسول الله ﷺ وأخبروه بخيانة اليهود وغدرهم. واشتد البلاء على المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ أن يشتت شمل هذه الأحزاب، ويحاول تفريقها، والنيل من وحدتها، فعرض على قادة غَطَفان أن ينسحبوا من هذه الحرب ولهم ثلث ثمار المدينة. فوافق زعماء غَطَفان وكتبوا بذلك كتاباً، وقبل أن يعطى الرسول ﷺ الكلمة النهائية بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما سيدا الأنصار وذكر لهما مفاوضاته مع قادة غطفان. فسألاه: يا رسول الله، أهو أمر تحبه فنصنعه لك؟ أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟. فقال ﷺ: «**بل شئ أصنعه لكم، فقد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة[2] وكالبوكم[3] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم حربتهم، وأقلل من عدوهم**». فقال سعد بن معاد رضي الله عنه: يا رسول الله، لقد كنا وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان والأصنام، لم نكن نعبد الله ولا نعرفه، ولم يطعموا من تمر المدينة إلا ضيافة، أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا وثمارنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، ووالله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فسر رسول الله ﷺ بكلام سعد بن معاذ رضي الله عنه ولم يتمم الإتفاق مع غطفان وأرسل إليهم بذلك.

واستعد المسلمون للحرب ولبسوا ملابسها.

***

كان الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة يحول دون حدوث اشتباك

---

(1) صلف: بغض.

(2) رمتكم عن قوس واحدة: أي اتفقوا عليكم.

(3) كالبوكم: اشتدوا عليكم وجاهروكم بالعداوة.

بالسيف؛ ولذلك لم يكن من قتال إلا التراشق بالسهام، وأحد هذه السهام أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله، وهو عرق في الذراع، فانفجر الدم يسيل بغزارة فتم اسعافه وربط جرحه، ثم أمر رسول الله ﷺ بأن تنصب له خيمة بالمسجد النبوي؛ حتى يكون قريبًا منه أثناء تمريضه؛ ليطمئن عليه باستمرار.

وفي هذه اللحظات يرفع سعد رضي الله عنه رأسه إلى السماء، ويدعو ربه قائلاً: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فابقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك، وكذبوه، وأخرجوه. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر[1] عيني من بني قريظة.

واستجاب الله تعالى دعاء سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقد أرسل ريحًا باردة في ليلة شديدة الظلمة على قريش وحلفائها، فولوا هاربين، وكان ذلك آخر لقاء لهم مع المسلمين. ورأى رسول الله ﷺ أن يهود بني قريظة قد خانوا عهدهم معه، فقرر أن يعاقبهم جزاء خيانتهم، فأمر بالذهاب إليهم ومحاصرتهم حتى يستسلموا وينزلوا على حكم الله تعالى ورسوله. وبالفعل حاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة، ورأى اليهود أنهم محاطون من كل جانب، ولا ملجأ ولا مهرب لهم من أمر الله تعالى، فأخذوا يبكون، ويتوسلون إلى رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم، ثم نزلوا من حصونهم. فذهب جماعة من الأوس إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا وحلفاءنا، فأحسن إليهم. وقد كان يهود بني قريظة حلفاء الأوس قبل الإسلام، وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. ثم إن الرسول ﷺ أجلى يهود بني قينقاع عن المدينة بعد غدرهم، وقد كانوا حلفاء إخوانهم الخزرج، فأراد الأوس أن يعامل الرسول ﷺ حلفاءهم كما عامل حلفاء الخزرج. فقال رسول الله ﷺ لهم: **«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»**. قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**.

وجاءت الفرصة التي كان ينتظرها سعد، وهي أن لا يميته الله تعالى حتى يقر عينه من بني قريظة، فقد أرسل الرسول ﷺ إليه، وجيء به من المسجد حيث يمرض. جاء راكبًا على حمار وحوله أهله من الأوس يقولون له: يا أبا عمرو،

---

(1) تقر: تُسر وتُفرح وتُرْضى.

أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتحسن فيهم، وأخذوا يلحّون عليه. فقال كلمته الخالدة: «**لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم**».

إن سعداً رأى بعينيه، وسمع بأذنيه الخيانة متجسدة فى هؤلاء اليهود الذين كان من المفترض عليهم أن يدافعوا عن المدينة مع المسلمين حسب المعاهدة بينهما. ولكنهم بغدرهم وخيانتهم أصبحوا عضواً فاسداً فى مجتمع المدينة النقى، والعضو الفاسد علاجه البتر. ثم إن سعداً قدّر أن هذه الخيانة كادت أن تهلك المدينة بمن فيها، وأن الخائن لابد أن يشتد عقابه حتى يصل إلى الموت والقتل...

وصل سعد راكبًا حماره إلى حيث يوجد رسول الله ﷺ مع جنود المسلمين، فأشار ﷺ لهم قائلاً: «**قوموا إلى سيدكم**». فقام الأنصار، ومرة أخرى قالوا له: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم التفت رضي الله عنه إلى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عنه خافض بصره، إجلالاً له ﷺ، وأكمل قائلاً: وعلى من ها هنا؟ فقال النبى ﷺ: «**نعم**». فانطلق لسان سعد يحكم بالعدل، وهو يقول: أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتُسبى الذرارى والنساء والأطفال.

تهلل وجه رسول الله ﷺ بالبشر وهو يعقب على حكم سعد، قائلاً: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. أو لقد حكمت فيهم بحكم الملك**»، وتمّ لسعد بن معاذ رضي الله عنه ما أراد وشفى الله صدره من بنى قريظة واستجاب دعاءه، ونال الخائنون الجزاء الوفاق الذى يستحقونه.

بعدها عاد سعد إلى خيمته بالمسجد النبوى، وما هى إلا لحظات حتى انفجر جرحه، وسال الدم منه بغزارة، ثم فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها. فجاء رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وبكيا عليه بكاءً شديداً، وقالا: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: 156].

صلى رسول الله ﷺ على سعد ودفنه وعاد يقول لأصحابه: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ، لقد نزل من الملائكة فى جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا**[1] **الأرض قبل**».

---

(1) وطئوا: داسوا.

واستقبلت السماء هذه الروح الطيبة، وفتحت له الجنة أبوابها، فطوبى له الخلود فيها. فهنيئًا لأبى عمرو سعد بن معاذ رضي الله عنه .

* * *

• **من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه :**

(1) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**» رواه البخارى.

(2) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « اهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ـ وفى رواية يلمسونها ـ ويعجبون من لينها، فقال: **أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين**» . متفق عليه.

* * *

(22) نعيم بن مسعود رضي الله عنه

لا نعرف عنه شيئًا قبل إسلامه، وبعد إسلامه لم ترو لنا كتب التاريخ والسير إلا موقفه يوم غزوة الأحزاب.

إنه رجل بجيش، خذل الله تعالى به الأحزاب عن المسلمين، وكان سبب فرقتهم وافتراقهم.

***

بعث الله تعالى محمداً بن عبد الله رسولاً إلى الناس جميعًا، صدق به من صدق، وكفر به من كفر، وحاربه من حارب، فكانت للمسلمين الغلبة فى غزوة بدر الكبرى، وفى غزوة أحد لم تثأر قريش لقتلاها يوم بدر بما فيه الكفاية، ولذلك قررت الهجوم على المدينة المنورة بجيش ضخم لاستئصال شأفة المسلمين نهائيًا[1]، خاصة بعد أن حرضتها يهود بنى النضير كما حرضت قبيلة غَطَفَان التى منها نعيم بن مسعود رضي الله عنه فاجتمع للمشركين جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان بن حرب، وتوجهوا نحو المدينة المنورة فى شوال من السنة الخامسة للهجرة، وعند وصولهم فوجئوا بمكيدة لم يعرفونها من قبل فى حروبهم ألا وهى حفر خندق حول المدينة يمنع دخولهم إليها.

وداخل المدينة كان بعض أفراد يهود بنى النضير قد تسللوا داخلها والتقوا بزعماء بن قريظة، وحرضونهم على خوض الحرب مع الأحزاب ضد المسلمين، ومازالوا بهم حتى نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وأعلنوا انضمامهم إلى الأحزاب، ووقع المسلمون بين فكى العدو، من خارج الخندق قريش وغطفان، ومن داخل المدينة يهود بنى قريظة الذين تعهدوا بفتح الطريق من ناحيتهم لدخول المدينة، وضَرْب المسلمين من خلف ظهورهم، وأصبح المسلمون كما قال الله عالى فيهم ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: 10، 11].

---

(1) استئصال شأفة المسلمين: إبادتهم وإزالتهم تمامًا.

وسط هذا الكرب العظيم، والبلاء المبين، والزلزال الشديد، خرج رجل من معسكر الأحزاب مستتراً بظلام الليل قاصداً معسكر المسلمين.

***

لم يكن هذا الرجل سوى نعيم بن مسعود رضي الله عنه الذى وصل إلى معسكر المسلمين مسلمًا، مقراً بوحدانية الله تعالى، وبنبوة محمد بن عبد الله ﷺ.

وقف نعيم رضي الله عنه بين يدى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إنى نعيم بن مسعود، وإنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت. فقال النبى ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل[1] عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**». فقال نعيم رضي الله عنه: نعم يا رسول الله سأفعل، وعسى الله أن يريك منى ما يسرك.

ثم خرج نعيم بن مسعود رضي الله عنه، وكان قد أعد خطة محكمة تعتمد على توفيق الله تعالى أولاً ثم على عدم العلم بإسلامه من جانب الأعداء واستغلال جهلهم بهذا الأمر، وعلى ثقة يهود بنى قريظة وكذلك قريش به، ذهب نعيم رضي الله عنه إلى يهود بنى قريظة، وقد كان لهم قبل إسلامه صاحبًا ورفيقًا، وقال لهم: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى لكم وصدقى فى نصحكم، وخاصة ما بينى وبينكم. فقالوا: صدقت، فأنت عندنا غير متّهم، تكلم، ماذا عندك من نصح؟ قال: إن قريشًا وغَطَفَان ليسوا كحالكم فى هذه الحرب. فسألوا: كيف؟ فأجاب: إن بلادهم وأموالهم ونساءهم ليست هنا، فإن وجدوا نصراً أحرزوه، وإلا عادوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وتركوكم وحدكم مع محمد، ولا طاقة لكم بحربه. فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: صدقت والله فيما قلت. فماذا ترى؟. قال: الرأى عندى ألا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا طائفة من أشرافهم رهنًا يكونون بأيديكم، وبذلك تحملونهم على القتال معكم. فقالوا: أصبت وأشرت بالرأى.

ثم خرج نعيم رضي الله عنه من عندهم قاصدًا قريشًا. فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه: يا معشر قريش، لقد عرفتم ودى لكم وعداوتى لمحمد، وقد بلغنى أمر رأيت من حقى أن أبلغكموه، فأنا لكم ناصح أمين، وأرجو أن تكتموه عنى. فقالوا له: نفعل، فما هو هذا الأمر الذى بلغكم. قال: إن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد، فأرسلوا إليه يقولون له إنهم قد ندموا على ما فعلوا وإنهم اتفقوا على

(1) خذّل: ادخل بين العدو وأضعف همته.

أخذ رهائن من أشرافكم ومن أشراف غَطَفَان يعطونها لمحمد يضرب أعناقهم، ثم ينضمون إليه لحربكم، فرضى بذلك منهم، فإن أرسلوا إليكم يطلبون رهائن من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

فقال أبو سفيان: نعم الحليف أنت يا نعيم، بوركت وجوزيت خيراً، ثم خرج نعيم رضي الله عنه من عند قريش، وأتى غَطَفَان.

فقال لهم: يا معشر غَطَفَان، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ، ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت، ماذا تريد أن تقول.

فقال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم مما حذرهم منه. . . . وأرادت قريش وغَطَفَان أن يختبرا بنى قريظة.

* * *

أرسل أبو سفيان بن حرب زعيم قريش، وأرسل كذلك زعماء غطفان وفداً إلى بنى قريظة يقولون لهم: لقد طال الحصار حتى مللنا، فاستعدوا غداً، فإنا قدعزمنا على الهجوم على محمد وأصحابه.

فقال زعماء اليهود: إن غداً يوم السبت ـ وكان ذلك من تقدير الله تعالى ـ وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، ومع هذا فلن نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن من أشراف رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإننا نخشى أن تعودوا إلى بلادكم وديياركم، وتتركونا لمحمد وأصحابه، ونحن لا طاقة لنا به. .

وعادت رسل قريش وغطفان إليهما وأخبراهما بما قال بنو قريظة. فقالوا: إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، ثم وقعت الفرقة بين الفريقين، وشتت الله شملهم، وفرق جمعهم، ثم أرسل عليهم ريحًا شديدة البرودة فى ليلة شديدة الظلمة، فعادوا خائبين والحسرة تمزق قلوبهم.

وصدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25].

* * *

بعد هذا الموقف البطولى عاش نعيم بن مسعود رضي الله عنه فى المدينة المنورة مع رسول الله ﷺ ووسط إخوانه من الصحابة، حتى كانت السنة الثامنة للهجرة، وفيها تم فتح مكة، ونال نعيم بن مسعود رضي الله عنه شرف حمل أحد ألوية غطفان، كما نال شرف الصحبة الكريمة.

وعاش نعيم بن مسعود رضي الله عنه حاملاً الإسلام فى قلبه اسمًا وسلوكًا وأخلاقًا حتى توفى فى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فرضى الله عنه وألحقه بالصالحين.

***

(٢٣) عتبة بن أسيد رضي الله عنه

« ويلُ أمه، مسعر[1] حرب لو كان معه رجال» هكذا قال رسول الله ﷺ عن أبى بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه .

هو أحد الصحابة الأجلاء، وقد ناله ما نال غيره من العذاب الشديد والإيذاء البليغ، وكغيره أيضًا لم يهن، ولم يلن، ولم يعط كلمة الكفر، بل ظل على الحق ثابتًا، وبه متمسكًا. هاجر الصحابة إلى المدينة المنورة، أما هو فلم يهاجر، فقد حبسه أهله ومنعوه من الهجرة، وضاعفوا عليه العذاب، عسى الوحدة مع العذاب أن يردانه إلى دين الآباء والأجداد، ولكن من ذاق طعم الإيمان يكره أن يعود إلى الكفرة كما يكره أن يقذف فى النار .

فاته شرف حمل السلاح بجوار النبى ﷺ ، ولم يفته الجهاد فى سبيل الله تعالى، فهو السبب المباشر لإسقاط أحد شروط صلح الحديبية، ويتضح ذلك من خلال مطالعتنا للمحة من حياته .

* * *

تحمّل كغيره الإيذاء الواقع عليه، ولكن الإبتلاء انتهى لأغلب المستضعفين بهجرتهم إلى المدينة المنورة، وبقى عتبة بن أسيد وآخرون دون هجرة، فقد حيل بينهم وبينها .

كان أبو بصير يتحرّق شوقًا إلى المدينة المنورة حيث صحبة الرسول ﷺ والجهاد معه، ولكن ما حيلته وقد مُنع من ذلك وحُددت إقامته بمكة المكرمة؟!

أو بتعبير آخر اعتقل فيها، والذى زاد من قسوة المحنة عليه سماعه بانتصارات المسلمين فى بدر والخندق وغيرهما، ويود لو كان مع إخوانه يشارك فى النصر بسيفه، ويتأثر ممن آذى المسلمين ووقف حجر عثرة فى طريق نور الإسلام، أو يحظى بشهادة ينعم بعدها بالفردوس الأعلى .

وقد حاول المحبوسون فى مكة الهرب منها، ولكن محاولاتهم تحطمت على

(1) مسعِّر: موقد أو مشعل.

صخور يقظة قريش، وإحكام قبضتها، وتوالت الأحداث واللقاءات بين المسلمين ومشركى مكة، حتى وصلت إلى صلح الحديبية فى العام السادس للهجرة .

* * *

خرج رسول الله ﷺ فى نحو ألف وخمسمائة من أصحابه يريدون العمرة، وأخذوا معهم الهَدْى[1] والسيوف فى أغمادها[2] ولما علمت قريش بمسيرهم أقسموا وتعاهدوا ألا يدخل عليهم المسلمون مكة عَنْوة[3]، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّو بينى وبين سائر العرب**». ثم نزل بصحابته بمكان قرب مكة يسمى الحديبية، فأرسلت إليه قريش تسأله ماذا يريد. فأخبرهم ﷺ أنه جاء زائرًا للبيت، معتمرًا ومعظمًا لحرمته، ولم يأت لقتال، فرفضت قريش ذلك خشية أن تتحدث العرب وتقول إن محمدًا دخل مكة على أهلها عنوة، ثم أرسلت قريش رسلها رسولاً تلو رسول حتى تم الاتفاق بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبين سهيل بين عمر رسول قريش على شروط صلح بينهما سمى بصلح الحديبية، **وكانت الشروط الأربعة هى:**

(1) – أن يرجع النبى ﷺ والمسلمون عن مكة هذا العام، ويعودون إليها العام القادم، فيقيمون بها ثلاثة أيام، وليس معهم إلا سلاح الراكب.

(2) – وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمنون فيها ويكف بعضهم عن بعض.

(3) من أراد أن يدخل فى حلف مع محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى حلف مع قريش دخل فيه.

(4) – من أتى المسلمين بالمدينة من قريش مسلمًا بغيرإذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا مرتدًا عن الإسلام لا يردوه.

وأثناء كتابة شروط الصلح جاء أحد المحبوسين بمكة، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، أفلت من محبسه، وجاء بقيوده إلى المسلمين إخوانه ليأخذونه معهم إلى

---

(1) الهدى: ما يهديه الحاج أو المعتمر من الإبل أو الشياه.

(2) أغماد: جمع غمد، وهو غلاف السيف.

(3) عَنْوة: كرهًا دون إرادة.

المدينة، ويخلصونه مما فيه، ولم تُجْد محاولات النبى ﷺ مع سهيل بن عمرو أن يترك له أبا جندل خاصة وأن الإتفاق لَم تكتمل كتابته ولم يُوَقّع. لكن سهيلاً رفض وهدد بعدم إبرام الإتفاق.

فعندئذ أوصاه الرسول ﷺ: **« يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»**

وعاد أبو جندل رضي الله عنه مع أبيه إلى مكة.

ورأى بعض الصحابة أن فى الشرط الأخير ضياع لحقهم، وأرّقهم هذا الشرط، إذ كيف يردون من جاءهم من إخوانهم إلى الكفار يعذبونهم ويفتنونهم فى دينهم، ولكن الرسول ﷺ يعلم أنه عبد الله ورسوله ولن يخالف أمره تعالى ولن يضيعه، وأن هذا فتح أو بداية الفتح.

والعجيب أن قريشًا بعد فترة هى التى طلبت من رسول الله ﷺ إسقاط هذا الشرط. وكان ذلك بسبب ما قام به أبو بصير مع بعض إخوانه.

***

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وبعد مدة أفلت أبو بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه من محبسه بمكة المكرمة، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فأرسلت قريش خلفه كتابًا مع رجل من بنى عامر ومولاً له يسمى كوثر، ولما وصل الرجلان إلى المدينة المنورة بالكتاب وعلم رسول الله ﷺ أن قريشًا تطالبه بتطبيق الشرط الرابع من شروط الصلح بينهما، وعليه أن يرد أبا بصير مع الرجلين إلى مكة المكرمة.

فأمر أبا بصير رضي الله عنه: **«يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصح فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك»**. فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟!. قال ﷺ: **«يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا »**

أطاع أبو بصير رضي الله عنه الأمر وانطلق مع الرجلين عائدين جميعًا إلى مكة المكرمة، وفى الطريق عند مكان يسمى ذو الحليفة جلس الجميع يستريحون من عناء السفر. فسأل أبو بصير رضي الله عنه الرجل العامرى بعد أن اطمأن إليه: أصارم [1] سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال العامرى: نعم، وهو شديد الصرامة.

فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه واختبره إن شئت. فأعطاه له، ولما أمسكه أبو بصير ضرب به الرجل العامرى فقتله، وفر مولاه كوثر سريعًا حتى النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد.

فلما رأه رسول الله ﷺ خائفًا متغير الوجه قال: إن هذا الرجل قد رأى فزعًا، ثم سأله: ويحك! مالك. فأجاب: قتل صاحبكم صاحبى وهرب، وإنى أخشى على نفسى القتل كصاحبى.

وما هى لحظة، وبينما الرجل يتحدث مع النبى ﷺ قدم أبو بصير على بعير الرجل العامرى متوشحًا بالسيف [2]. فأناخ البعير، ودخل المسجد، ووقف أمام رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، وفّت ذمتك، وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى [3] بيد القوم تنفيذًا للشرط والعهد، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه. فالتفت النبى ﷺ إلى كوثر ذلك المولى وسأله إن كان يستطيع وحده أن يعود بأبى بصير إلى مكة، فأجابه أنه لا يستطيع، وأنه يخاف على نفسه منه. فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير رضي الله عنه بالإنصراف حيث شاء.

خرج أبو بصير رضي الله عنه ونزل فى مكان يسمى «العيص» على ساحل البحر بطريق الشام، وهى الطريق التى تسلكها قريش فى رحلاتها التجارية.

بعد انصراف أبى بصير رضي الله عنه قال عنه رسول الله ﷺ: « **ويل أمه، مسعّر حرب لو كان معه رجال**» وبلغ المسلمون الذين كانوا قد حبسوا فى مكة هذا القول، فاجتهدوا حتى أفلتوا من محبسهم، ولحقوا بأبى بصير رضي الله عنه، وكانوا قريبًا من سبعين رجلاً،

---

(1) صارم: حاد وقاطع.

(2) متوحشًا بالسيف: تقلده وعلقه عليه.

(3) أسلمتنى: سلمتنى ودفعتنى إليهم.

منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فنظموا أنفسهم، ووضعوا خطة محكمة للثأر من قريش يستردون بها بعض أموال المسلمين التى تركوها فى مكة، وهذه الخطة، بل هذا الحصار الذى ضربته هذه الفئة المؤمنة هى التى جعلت قريش تطالب بإبطال الشرط الرابع من شروط صلح الحديبية الذى طالما أرّق المسلمين.

***

تولى قيادة الجماعة أبو بصير رضي الله عنه، فكان يصدر التعليمات، ويؤمهم فى الصلاة، ويعلمهم أحكام الدين وشرائعه التى تصل إليهم عن طريق الذاهبين والآيبين من المسلمين، حسبما يتسير لهم.

وقامت خطة هذه الفئة على اعتراض طريق القوافل التجارية لقريش، والتضييق عليها وحصارها اقتصاديًا حتى تكف عن المسلمين، وهم إنما يفعلون ذلك من أنفسهم دون أن يكون لدولة الإسلام بالمدينة المنورة أى دور، فكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه، ولا تمر بهم قافلة إلا اقتطعوها واستولوا عليها.

وظل الحال كذلك حتى ضجّت قريش وكتبت إلى رسول الله ﷺ تسأله بالله والرحم أن يكف عنهم أبا بصير وجماعته، وأن يأخذهم عنده فى المدينة فليسوا فى حاجة إليهم.

بعث الرسول ﷺ كتابًا إلى أبى بصير رضي الله عنه يأمره بالكف عن التعرض لقوافل قريش، وأن يعود بإخوانه إلى المدينة المنورة.

أثناء وصول الكتاب كان أبو بصير رضي الله عنه مريضًا، وعند وصول الكتاب كان قد توفى، وتولى دفنه أبو جندل رضي الله عنه الذى عاد بجماعة المسلمين هذه إلى المدينة المنورة. رضى الله تعالى عن أبى بصير عتبه بن أسيد ذلك الصحابى الذى كان سببًا فى إسقاط أحد شروط صلح الحديبية، فبعد أن كان من يأتى المسلمين من قريش مسلمًا بغير إذن وليه يلزم المسلمون برده، أصبح أنه من أتى المسلمين قريش مسلمًا لا يرده المسلمون إليهم.

فرحم الله أبا بصير رضي الله عنه ذلك الصابر المحتسب والبطل الشجاع...

(24) البراء بن معرور رضي الله عنه

سيد الأنصار وكبيرهم وأحد الذين بايعوا النبى ﷺ عند العقبة، بل هو نقيب بنى سلمة، وهو أول من صلى تجاه الكعبة المشرفة، ويقال أنه أول من أوصى بثلث ماله، وأول من ضرب على يد رسول الله ﷺ مصافحًا ومبايعًا فى بيعة العقبة الثانية.

ذلك هو الصحابى العظيم القدر، المهيب الجليل أبو بشر البراء بن معرور بن صخر.

***

لا نعرف شيئًا عن حياته السابقة قبل الإسلام، وإنما تبدأ قصتنا مع إسلامه حينما سمع عن الإسلام كدين ورساله ومنهج ومبادئ وسلوك وأخلاق، وعن رسول الإسلام كرسول صادق أمين رؤوف رحيم، صفاته تدل على أنه أفضل رجل عرفته البشرية، ومن العبث أن يعادى رجل مثله، ومن الظلم أن يخرج رجل مثله من بلده.

سمع البراء عن الإسلام من خلال وفد من المدينة المنورة قدم مكة المكرمة فعرض رسول الله ﷺ عليهم الإسلام، فعلموا أنه الرسول الذى تتحدث عنه كتب أهل الكتاب، والذى يذكره اليهود بأنه النبى الخاتم، فآمنوا به.

وعندما عادوا إلى بلادهم ذكروا لهم ما سمعوه عن الدين الجديد، فلم تبق دار من دور المدينة المنورة إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

وبعد عام كانت بيعة العقبة الأولى، وكان عدد الأنصار اثنا عشر رجلاً، آمنوا وصدقوا وشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأرسل رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين. وكان هو أول سفير فى الإسلام..

وبعد عام من بيعة العقبة الأولى كانت بيعة العقبة الثانية فى السنة الثالثة عشر للنبوة، أى قبل الهجرة بقليل.

لما أراد الله النصر لدينه ونبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، وخروجًا بدعوة الإسلام من مكة إلى ما حولها، ونشرًا بل وانتشارًا للرسالة الحقة الخالدة، جاء إلى المدينة فى موسم الحج مصعب بن عمير رضي الله عنه ومعه بعض أهل المدينة ممن أسلم وجاء ليبايع النبى ﷺ، وفى أثناء السفر كانوا يصلون متجهين إلى بيت المقدس، حيث أن القبلة لم تتحول بعد إلى الكعبة المشرفة، أما البراء بن بعرور رضي الله عنه فقد كان له شأن آخر كان يحس بعظم البيت الحرام، والكعبة المشرفة، ولذلك فقد قال لقومه: يا هؤلاء، إنى قد رأيت رأيًا فلا أدرى أتوافقننى عليه أم لا؟

فقالوا: وما هو؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البَنيّة - يعنى الكعبة- منى بظهر، ولا استدبرها، ورأيت أن أصلى متجهًا إليها مستقبلاً لها.

فقالوا: والله ما بلغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام مستقبلاً بيت المقدس، وما نريد أن نخالفه. فقال البراء رضي الله عنه: إنى لمصل إليها. فكانت إذا حضرت الصلاة صلى الجميع إلى بيت المقدس، وصلى البراء إلى الكعبة، حتى قدموا مكة المكرمة، وكانوا قد عابوا على البراء هذه المخالفة، فلما وصلوا أحس البراء رضي الله عنه بما فعله، فقال لأحد إخوانه وهو كعب بن مالك: يا ابن أخى، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عما صنعت فى سفرى هذا، فإنه قد وقع فى نفسى منه شئ لِمَا رأيت من خلافكم إيّاى فيه.

فانطلقا يسألان عن رسول الله ﷺ، وكانا لا يعرفانه. فقابلهما رجل سألهما إن كانا يعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟

فأجابه: نعم، لأن العباس رضي الله عنه كان تاجرًا معروفًا. فقال لهما الرجل وهو يشير ناحية المسجد الحرام: إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس.

فانطلقا حتى دخلا المسجد، فسلما ثم جلسا، وسأله البراء رضي الله عنه: يا نبى الله، إنى قد خرجت فى سفرى هذا، وقد هدانى الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنيّة - وأشار إلى الكعبة - منى بظهر، فصليت إليها، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك، حتى وقع فى نفس من ذلك شئ، وخشيت مخالفتك، فماذا ترى يا رسول

الله؟ . فقال له ﷺ : « لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها» ثم أمره بالصلاة ناحية بيت المقدس . فأطاع البراء رضي الله عنه الأمر . وفى هذا يفتخر الشاعر الأنصارى بقوله :

ومنّا المصلى أول الناس مُقْبلاً على كعبة الرحمن بين المشاعر

***

بعد أيام من هذا اللقاء خرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان تحت جُنح الظلام متسللين نحو العقبة حسب اتفاقهم مع رسول الله ﷺ ؛ليبايعوه، فجاءهم النبى ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وبعد أن أنهى العباس كلامه للقوم ليستوثق منهم للنبى ﷺ منهم، قالوا: تكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن الكريم، ودعا إلى الله تعالى وعبادته، ورغّب فى الإسلام والإلتزام به، ثم بايعهم على :

(1) - السمع والطاعة فى النشاط والكسل .

(2) - النفقة فى العسر واليسر .

(3) - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(4) - ألا تأخذهم فى الله لومة لائم .

(5) - أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، ولهم الجنة إن وفّوا بذلك .

وعند ذلك أخذ البراء بن معرور رضي الله عنه بيد النبى ﷺ ، وقال: نعم والذى بعثك بالحق نبيًا لنمنعك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر[1] .

وبعد انتهاء الحوار والمبايعة طلب الرسول ﷺ منهم أن يُخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا[2] ليكونوا على قومهم . فكان البراء بن معرور نقيب بنى سلمة من الخزرج .

(1) كابراً عن كابر : أبًا عن جد . (2) نقيبًا : كبيراً للقوم .

وبعد أخذ البيعة عاد أهل المدينة إلى مدينتهم، لم يقدّر الله تعالى للبراء بن معرو رضي الله عنه أن يشهد هجرة النبى ﷺ، فقد مات فى شهر صفر قبل الهجرة بشهر. ألمّ[1] به مرض فأوصى أهله وهو يحتضر أن يستقبلوا به الكعبة، وأن يدفنوه إذا مات متجهًا إليها. وبعد وصيته هذه فارق الحياة، ففعل أهله ما أوصاهم به، وعندما قدم النبى ﷺ المدينة مهاجرًا أتى قبره مع أصحابه فصلوا عليه لمكانته الكبرى، ومنزلته العالية، وفضله العظيم، فرضوان الله تعالى عليه.

***

(1) ألمّ: أتاه وأصابه.

(25) أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه

ومن منا لا يعرفه أو لم يسمع باسمه من قبل، إنه زعيم الكفر قبل إسلامه، فقد آلت[1] إليه زعامة مكة المكرمة فى حروبها ضد الإسلام والمسلمين بعد غزوة بدر الكبرى، فهو الصحابى الجليل بعد إيمانه، هكذا انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى يوم الفتح الأعظم يوم فتح مكة بإرادة الله تعالى الذى يملك القلوب. وهو والد أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ، ووالد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه، وأحد أشراف العرب وسادة قريش.

كان رجلاً يحب الفخر؛ ولذلك جعل الرسول ﷺ له شيئًا من ذلك عندما دخل مكة فاتحًا، وقال لأهلها وهو يؤمنهم على أنفسهم «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**» . . معًا نقلب الصفحات؛ لنتعرف عليه أكثر وأكثر.

***

هو أبو سفيان صخر بن حرب بين أمية، وله كنية أخرى هى أبو حنظلة باسم ابنه الأكبر حنظلة. ولد قبل عام الفيل بعشر سنوات؛ ولذلك فهو أسن من رسول الله ﷺ. وكان صديقًا للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبى ﷺ، وكان من أشراف قريش وأفضلهم رأيًا، وهو أحد الذى يتاجرون بأموالها، ولكن ما أن ظهرت دعوة الإسلام فى مكة المكرمة حتى بدأت قريش حربها عليها، رغم أنها تعلم أن محمدًا ﷺ صادق فيما دعو إليه، أمين فيما يبلغ عن ربه تعالى. ومن هؤلاء كان أبو سفيان بن حرب، ورغم ذلك إلا أنه كان يعرف لمحمد بن عبد الله ﷺ قدره وشرفه، ويجله أعظم إجلال، فقد ركب ذات يوم دابته وخلفه زوجته هند بنت عتبة، ومعهما معاوية ابنهما يركب حمارًا، وكان لا يزال صغيرًا، فمروا برسول الله ﷺ وهو يسير، فقال أبو سفيان رضي الله عنه لابنه: انزل يا معاوية حتى يركب محمد، فنزل معاوية وركب رسول الله ﷺ، فساروا قليلاً، ثم التفت إليهم رسول

(1) آلت: صارت ورجعت.

الله ﷺ وقال: **يا أبا سفيان بن حرب، ويا هند بنت عتبة، والله لتموتن، ثم لتبعثن، ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيئ النار وأنا أقول لكم بحق.** ثم قرأ عليهم القرآن الكريم. فقال أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟

قال: **نعم.** ثم نزل رسول الله ﷺ، وركب معاوية وسار كل فى طريقه، فقالت هند لزوجها: ألهذا الساحر أنزلت ابنى؟! فأجابها: **لا والله ما هو بساحر ولا كذاب**، بل إنه عندما سأله هرقل ملك الروم عن رسول الله ﷺ، لم يشأ أن يكذب، بل إنه قال: والله لولا الحياء من أن يأثروا علىّ كذبًا لكذبت عنه ولم يقل إلا الصدق من أن محمدًا من أوسطهم حسبًا ونسبًا.

هكذا كانت أخلاقه الصدق والمروءة، ورجاحة العقل.

***

عند اشتداد العذاب على المسلمين أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجروا إليها، وتركوا أموالهم وديارهم بمكة المكرمة، فاستولى عليها المشركون، وكان استرداد هذه الأموال سبب غزوة بدر الكبرى. كان أبو سفيان رضي الله عنه يذهب بتجارة قريش إلى الشام، ويعود بالأموال والبضائع الشامية، وعلم رسول الله ﷺ أن قافلة عظيمة قادمة من الشام فيها أموال لقريش بقيادة أبى سفيان بن حرب، فحث المسلمين إليها، وقال: « **هذه عير[1] قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها[2]**»

فخرج بعض المسلمين، وكان عددهم حوالى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وما كانوا يظنون أن قتالاً سيحدث، علم أبو سفيان أن المسلمين قد خرجوا إليه يريدون القافلة، فغير الطريق، وفى نفس الوقت أرسل إلى قريش يخبرهم أن محمدًا وأصحابه يريدون القافلة، فعليهم بالخروج لحماية أموالهم. وصل الفريقان، فريق الحق والإيمان، وفريق الكفر والطغيان، إلى أرض المعركة، وكانت عند بئربدر، وانتصر المسلمون، وأسروا سبعين من جيش مكة، وكان من بين الأسرى عمرو بن

(1) عير: القافلة التي تحمل الطعام والأموال.
(2) ينفلكموها: يغنمكموها.

أبى سفيان ، آلت زعامة قريش بعد هذه المعركة إلى أبى سفيان بن حرب رضي الله عنه الذى نذرألا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرّ يمينه ويوفى نذره، فوجدوا على أطراف المدينة المنورة رجلاً من الأنصار مع حليف له فقتلوهما ثم رجعوا هاربين، وعلم رسول الله ﷺ بذلك فخرج ومعه بعض المسلمين لمطاردتهم، ولكنهم بالغوا فى السرعة والهرب.

بعد عام من غزوة بدر الكبرى عاودت قريش هجومها فيما يعرف بغزوة أحد.

رصدت قريش أموال القافلة التى كانت سبب غزوة بدر وقتل أشرافهم لتجهيز جيش يأخذ الثأر من المسلمين. وتكوّن الجيش، وكان قوامه ثلاثة آلاف مقاتل. وتحرك نحو المدينة المنورة، وعلم رسول الله ﷺ بذلك فخرج لملاقاته بسبعمائة مقاتل عند جبل أحد، وعيّن سبعين من أمهر الرماة وجعلهم فوق الجبل بقيادة عبد الله بن جبير الأنصارى رضي الله عنه ، وأوصاهم أن يحموا ظهور المسلمين، وألا يتركوا الجبل مهما حدث.

وبدأت المعركة، واندلعت نيرانها، وازداد اشتعالها، وأخذ المسلمون يحصدون رؤوس المشركين حتى هزموهم، وسقط لواءهم على الأرض، فهنا نزل الرماة من فوق الجبل رغم تحذير قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، فقد ظنوا أن المعركة قد انتهت وحسمت، إلا أن خالد بن الوليد - وكان لا يزال على شركه- استدار بالجيش وقتل من بقى من الرماة، فانكشف ظهر الجيش الإسلامى وتحول نصره إلى هزيمة بسبب مخالفة أوامر الرسول ﷺ ، بل إنه قد أشيع فى المعركة أن رسول الله ﷺ قد قتل.

قبل أن ينصرف المشركون صعد أبو سفيان على الجبل، ونادى المسلمين: أفيكم محمد؟ فلم يسمع جوابًا. فقال: أفيكم ابن أبى قحافة؟ فلم يجبه أحد. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. فقال: أمّا هؤلاء فقد كفيتموهم، لأنه يعلم أن قيام الإسلام بهم. فهنا قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا عدو الله، إن الذى ذكرتهم أحياء.

ثم قال أبو سفيان صائحًا: أعْلِ هُبل [1]. فقال رسول الله ﷺ : ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما نقول: قال: قولوا الله أعلَى وأجل. فقالها عمر. ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّى [2] ولا عزى لكم. فقال النبى ﷺ : ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما تقول؟ قال:

(1) هُبَل: اسم صنم.

(2) العزّى: اسم صنم.

قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. فقالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم قال أبو سفيان: الحرب سجَال[1] يوم بيوم بدر فأجابه عمر: لا سواء. قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار. ثم قال أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مُثل[2]، والله ما رضيت بها، وما نهيت، وما أمرت. ثم نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل. ثم أمر بالرحيل نحو مكة.

وبعد عامين وفى شوال من السنة الخامسة للهجرة، قاد أبو سفيان قريش ومن معها لغزوة المدينة المنورة فيما يعرف بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

***

وصلت جموع المشركين، وكان عددها عشرة آلاف مقاتل إلى المدينة المنورة، ففوجئت بمكيدة لم تكن العرب تعرفها قبل ذلك، وهى حفر خندق حول المدينة، والذى أشار بذلك هو الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضي الله عنه لم يجد المشركون أمام هذه الحيلة سوى ضرب حصار حول المدينة دام حوالى شهر، ولكن الله تعالى فرّق جموع الأحزاب، وشتت شملهم، وأرسل عليهم فى ليلة مظلمة ريحًا شديدةً باردة نزعت خيامهم من أوتادها، وأطفأت نارهم، وألقت الرعب فى قلوبهم. فناداهم قائدهم بالرحيل: يا معشر قريش، لقد لقينا من شدة الريح ما ترون، وإنى راحل فارتحلوا، ولينظر كل امرئ من جليسه.

وهكذا أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنعم عليهم، وعصمهم ممن أراد بهم السوء بعد أن زلزلوا زِلزالاً شديدًا، ورد الله الذين كفروا من الأحزاب بغيظهم دون أن ينالوا من المسلمين شيئًا، وكفى الله المؤمنين القتال. . وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة كان صلح الحديبية بين المسلمين وقريش الذى نقضته عندما أعانت قبيلة بنى بكر الداخلة معها فى حلفها على قبيلة خزاعة الداخلة فى حلف المسلمين، وطبقًا لنصوص المعاهدة فإن هذا يعتبر نقضًا لها، وخافت قريش من تبعات هذا النقض، فأرسلت أبا سفيان بن حرب زعيمها إلى المدينة المنورة ليجدد العهد، ويزيد فى المدة.

(1) سِجَال: متداولة يوم نصر ويوم هزيمة. (2) المُثلة: تشويه القتيل بقطع بعض أعضائه.

وصل أبو سفيان رضي الله عنه إلى المدينة المنورة، دخل على ابنته أم حبيبة زوجة النبى ﷺ ، فلما هم بالجلوس على فراش رسول الله ﷺ طوقته عنه، فعجب أبو سفيان من صنيع ابنته، وقال لها: يَا بنية، أرغبت بى عن الفراش، أم رغبت به عنى؟!! فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مُشرك نجس. فقال لها: والله لقد أصابك بعدىَ شر.

ثم خرج فأتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال له: ما أنا بفاعل. . ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال له: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر[1] لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب رضي الله عنه ، فقال له: يا على إنك أقرب القوم إلىّ، وإنى قد جئتك فى حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لى إلى محمد. فقال له: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة -رضى الله عنها -، وقد بلغ به اليأس مداه، وقال لها: يا ابنة محمد، أهل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ . فقالت: والله ما يبلغ ابنى ما تقول، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، وعاد أبو سفيان إلى مكة خائبًا كما جاء. وبعد هذه الواقعة بأيام كان فتح مكة المكرمة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

***

أخذ الله تعالى العيون عن قريش فلم تعلم بقدوم جيش المسلمين، وكان عدده عشرة الاف حتى وصل إلى مشارف مكة عند مكان يسمى «مَرّ الظهران». . نزل الجيش وعسكر، وأمر رسول الله ﷺ بإيقاد شُعَل النار، فأوقدت عشرة آلاف شعلة.

أثناء ذلك كان أبو سفيان قد خرج ليلاً يتجسس الأخبار ومعه حكيم بن حزام وبديلَ بن ورقاء، فرأوا هذه النيران، فتعجبوا منها، وقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط، ولا عسكرًا. فرد عليه بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[2]

(1) الذر: الحصى الصغيرة.
(2) حمشتها: احرقتها.

الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فسمع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ صوت أبي سفيان، فعرفه وناداه: أبا حنظلة. أبا حنظلة. وعرف أبو سفيان رضي الله عنه صوت العباس رضي الله عنه أيضًا، فأجابه: أبا الفضل. فقال العباس: نعم. فسأله أبو سفيان: لمن هذه النيران؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في الناس. ثم نصحه قائلاً: والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربن عنقك، فاركب خلفي على بغلة رسول الله حتى آتي بك إليه فأستأمنه لك.

وسارت البغلة، وكلما مرّت على نار من نيران المسلمين سألوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة الرسول ﷺ وعليها عمه تركوها، حتى مرّا على خيمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأى أبا سفيان خلف العبّاس على البغلة، فقال: أبو سفيان عدو الله؟!! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد في سيره نحو رسول الله ﷺ. أما العباس فقد أسرع بالبغلة حتى سبقه إلى رسول الله ﷺ، ودخل عليه، ودخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا، وقال له: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله، إني قد أجرته[1] ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن يذهب به ويبيته عنده، ويأتي به في الصباح. فلمّا أصبح العباس جاء به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال له: **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟** فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى غنى شيئًا بعد، والمعنى أن أبا سفيان رضي الله عنه يعلم يقينًا كغيره من مشركي مكة أنه لا إله مع الله، فهو الواحد المتفرد بالعبودية، وأن ما يعبدونه من أصنام لا تغني عنهم شيئًا، ولا تملك لهم النفع ساعة الخطر، وعبادتهم لها لتقربهم إلى الله منزلة.

ثم سأله رسول الله ﷺ: **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!** قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، ويدخل العباس رضي الله عنه في الحوار، ويقول لأبي سفيان:

---

(1) أجرته: حميته وأمّنته.

ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وهنا يشعر أبو سفيان أنه لا فائدة من العناد والمكابرة، وأن نور الحق قد سطع، فعليه أن ينقاد له، ويسلم لله رب العالمين، فشهد شهادة الحق وأسلم.

فقال العباس رضي الله عنه : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. فقال ﷺ : **نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن** وأسلم أبو سفيان رضي الله عنه ، وأصبح للإسلام وجنديًا من جنوده بعد أن كان عليه، وقائدًا من قواد الكفر والطغيان، وأبلى البلاء الحسن فى سبيل رفعة ونصرة هذا الدين.

***

بعد إسلام أبى سفيان رضي الله عنه ، وقبل دخول جيش الإسلام مكة المكرمة، كانت تمر الجنود، كل قبيلة يحمل لواءها أحد أفرادها فيراها أبو سفيان رضي الله عنه قبيلة قبيلة، فيقول: ما لى ولبنى فلان، مالى ولبنى فلان، حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبة الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى فيها إلا حدَاق[1] أعينهم، فقال للعباس: سبحان الله يا عباس! من هولاء فأجابه: هَذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار. فقال أبو سفيان رضي الله عنه : ما لأحد بهؤلاء قبَل[2] ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا. فرد العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة. فقال: فنعم إذن. دخل الرسول ﷺ مكة المكرمة، وعفا عن أهلها جميعًا، وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وطهّر الكعبة من الأصنام التى حولها وفوقها والصور التى بداخلها. . وعندما حانت الصلاة أمر بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن للصلاة، وكان أبو سفيان رضي الله عنه ومعه آخران لم يسلما بعد جلوس بفناء[3] الكعبة.

فقال أحد الرجلين: لقد أكرم الله أبى أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما

---

(1) حدَاق: جمع حدقة، وهى السواد المستدير وسط العين.

(2) قبَل: طاقة ومقدرة.

(3) فَناء: الساحة ويجمع على أفنية.

يغيظه. وقال الآخر: أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته، أما أبو سفيان رضي الله عنه فقال: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء[1].

وشهد أبو سفيان رضي الله عنه بعد ذلك غزوة حُنَيْن[2]، وأعطاه الرسول ﷺ من الغنائم مائة من الإبل ليتألف[3] قلبه، كما أعطى لغيره من الزعماء الذين أسلموا يوم فتح مكة حتى يثبتوا على إسلامهم، فإن من الناس من لا ينقاد إلى الحق إلا بالمال، حتى يثبت عليه، وعندما أعطاه الرسول ﷺ ما أعطاه، قال له: والله إنك لكريم، فداك أبى وأمى، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً.

وشهد بعد ذلك أبو سفيان رضي الله عنه غزوة الطائف، وأصيبت عينه بسهم ففقأها، فأتى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله، هذه عينى أصيبت فى سبيل الله، فقال له النبى ﷺ: **إن شئت دعوت الله، فَرُدَّت عليك، وإن شئت فالجنة.** فقال: بل أصبر والجنة. وعندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، بعث معهم أبا سفيان بن حرب ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه ليهدما صنمهم اللات..

***

كان أبو سفيان رضي الله عنه يندم على المشاهد التى شهدها ضد المسلمين، وعلى كل يوم وقف فيه يصد عن سبيل الله، ويرجو أن يقف موقفًا يدافع عنه، عساه أن يعوض ما فاته. وبالفعل عندما كانت خلافة الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه حدثت معركة اليرموك[4] الخالدة، وفيها قاتل أبو سفيان رضي الله عنه قتال الأبطال، وكان هو الخطيب فى الجيش، والمثبت له، والمحرض له على القتال والاستبسال والذود عن الإسلام. فقد كان يصيح فى كل كتيبة، وهو يقول: الله الله، إنك ذادة[5] العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار المشركين.

---

(1) الحصباء: الحجارة الصغيرة.

(2) حُنَيْن: غزوة بين المسلمين وقبيلتا هوازن وثقيف فى السنة الثامنة للهجرة.

(3) يتألف: يستميل.

(4) اليرموك: معركة بين المسلمين والروم فى السنة الخامسة عشرة للهجرة.

(5) ذادة: حُماة.

اللهم هذا يوم من أيّامك. اللهم أنزل نصرك على عبادك، ويشتد القتال، ويبلى المسلمون البلاء الحسن حتى يتحقق لهم النصر بإذن الله تعالى..

وهكذا انتقل هذا الصحابى الجليل من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، وتحول بفضل الله تعالى إلى مجاهد فى سبيله بعد أن كان يقاتل فى سبيل الهوى والشيطان. حتى لبى نداء ربه فى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين للهجرة.

رحمه الله تعالى، وتغمده بواسع رحمته.

• **من فضائل أبى سفيان بن حرب رضي الله عنه:**

١- قال رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»**.

***

الفهرس

إسم الصحابي	الصفحة
1 - بلال بن رباح رضي الله عنه	٦
2 - سلمان الفارسي رضي الله عنه	١٧
3 - صهيب الرومي رضي الله عنه	٣٠
4 - عمار بن ياسر - رضي الله عنهما -	٣٧
5 - عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -	٤٥
6 - عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -	٥٣
7 - عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -	٦٣
8 - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	٦٩
9 - خُبيب بن عدي رضي الله عنه	٧٦
10 - خباب بن الأرت رضي الله عنه	٨٠
11 - أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه	٨٧
12 - ذو البجادين رضي الله عنه	٩٣
13 - عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه	٩٧
14 - زيد بن حارثة رضي الله عنه	١٠٣
15 - جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه	١١١
16 - عبد الله بن رواحة رضي الله عنه	١١٧
17 - أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما -	١٢٥
18 - جُليبيب رضي الله عنه	١٣٣
19 - عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه	١٣٥
20 - أبو هريرة رضي الله عنه	١٣٨
21 - سعد بن معاذ رضي الله عنه	١٤٥
22 - نعيم بن مسعود رضي الله عنه	١٥٤
23 - عتبة بن أسيد رضي الله عنه	١٥٨
24 - البراء بن معرور رضي الله عنه	١٦٣
25 - أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه	١٦٧